عَائشة سُلطان

هَوامِش في المُدن والسَفر والرحيل

في أدب الرحلات

الدار المصرية اللبنانية

هوامش

في المدن والسفر والرحيل

هوامش

في المدن والسفر والرحيل

في أدب الرحلات

عائشة سلطان

- الذبابة
- العم روبين
- رباط الصداقة
- الرهان
- الشمعة
- انتظار
- انتقام
- حين تهب رياح الشرق
- إمبراطورة
- الموسيقار

«... الكتابة عن المدن تعد حفظًا للذاكرة، فالمكان يسجل نفسه في ذاكرتنا وفقًا لأحاسيسنا في اللحظة الراهنة، وحين ندمر تفاصيله.. البيوت، الأشجار، الأسوار والأسواق... فإننا نفقد فهرس ذاكرتنا، لأن فقدان المكان هو فقدانٌ للذاكرة»!

الروائي التركي - أورهان باموق

هوامش في المدن والسفر والرحيل: في أدب الرحلات/ عائشة سلطان .- ط1.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2021.

160 ص؛ 20 سم.

تدمك: 9789777953191

1- الرحلات في الأدب العربي.

2- العالم - وصف ورحلات.

أ- العنوان 810,9031

رقم الإيداع: 2021/ 11261

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى للدار المصرية اللبنانية 2021 م

تصميم الغلاف الفنان: كريم آدم.

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميّا أو تخزينه

أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

الدار المصرية اللبنانية

كلمة لا بد منها..

ممتنة لكل من رافقني وشاركني هذه التجارب وتلك الأسفار التي تركت فيّ كل هذا الثراء، شكرًا للذين شاركوني الضحك والبهجة في القطارات والرحلات الطويلة وعلى المقاهي وأرصفة المحطات، شكرًا للمغامرات والشقاوات، لمن حاول منعي عنها ولمن ترك لي الحبل على الغارب لأعب منها، وشكرًا لمن سيقرؤها ويتوقف عندها..

عائشة سلطان

دبي 2021

في السفر

على قلق كأن الريح تحتي

«المتنبي»

في طفولتي المبكرة، كُنت أسمع جدتي (فاطمة بنت عبد الله) - رحمها الله - تردد عبارات لا أفهم معناها، فإذا سألت أمي عما كانت تقصده جدتي كانت تجيبني في كل مرة: غدًا تكبرين وتفهمين، وعندما كبرت لم أعرف ولم أفهم بالبساطة التي تخيلتها وشرحتها لي أمي، لقد عرفت وفهمت ولكن الثمن كان مكلفًا، حتى تمنيت لو أنني لم أكبر ولم أفهم، فالعُمر حين نكبر يصير أكثر اتساعًا كبحر لا متناهٍ ومخيف جدًّا، ومملوء بأشياء كثيرة، نعم كالبحر تمامًا حكيم ومتطلب وصعب!

عندما بدأت أكبر سمعتهم يرددون دائمًا أن الكبار حكماء وأن الحكمة ضالة العاقل وهاجسه، أينما وجدها فحري به أن يسعى لامتلاكها، وحين سألتُ المعلمة في المدرسة عن معنى ذلك، قالت لي: إن الحكمة هي المعنى المختصر لتلك الخُلاصات التي نحصل عليها من التجارب والمواقف والأسفار والكتب والقراءات والأشخاص والأماكن التي نمر بها ونراها ونقرؤها ونعبرها في حياتنا، وأنها تحتاج إلى زمن لتنضج، عندها تخيلت الحكمة كوجبة طعام لا بد لها من وقت كي تصبح لذيذة أكثر!

وحين كبرت أكثر عرفت أن الحكمة كالنار تسرق غوايات القلب لتمنحها للعقل، وأنه كلما كبرنا قلّ فرحنا وتضاءلت دهشتنا، لأننا صرنا أكثر حكمة وأكثر رصانة وأقل دهشة!

عندها تمنيت لو لم أكبر حتى لا أفقد نزق الفرح في قلبي ودهشتي أمام الأشياء والتفاصيل، فوحده الطفل يفتح فمه وعينيه مندهشًا أمام الأشياء الجديدة والمختلفة، ووحده يصرخ بالحقيقة الصعبة ببساطة فاتنة وساذجة معًا حين يتلعثم الكبار وتدور أعينهم في محاجرها من الخوف. وحده الطفل يمارس فرحًا حقيقيًّا لأنه لم يكبر ولم يُراكِم في قلبه وداخل رأسه أحجار الحكمة تلك التي تجعله ثقيلًا أكثر مما يجب وحزينًا أكثر مما تحتاجه الحياة.

إن الكبار يعانون كثيرًا وهم يعدون دقات قلوبهم ويحسبون تكاليف تلقائيتهم، لأنهم مكبلون بقيود الحذر!

كثيرًا ما كنت أسمع والدتي تقول في كل مرة يُسافر فيها إخوتي أو تودع أحد معارفها وتستقبلهم بعد أيام «الإنسان مثل الطير تمامًا»، وكنت أسأل عن مغزى الجملة فترد عليَّ كعادتها: ستفهمين عندما تكبرين.. وحين كبرت وسافرت حتى مللت السفر والترحال، عرفت ما كانت تعنيه والدتي بالضبط!

عرفت أننا لا نكبر فعلًا، ولا نفهم الحياة كما يجب إلا حين نسبح في كل البحار، وتطأ أقدامنا أراضي بعيدة، ونجوب شوارع غير شوارعنا ونتحدث إلى أناس غير الذين اعتدنا أن نحدثهم كل

يوم، ونقع ثم ننهض لنقع ثانيًا وثالثًا وعاشرًا، ونقف في موازاة البشر كما نقف أمام الحوانيت قلوبنا مملوءة بالدهشة والصدمة وعيوننا باللهفة والحذر معًا، عرفت أن أجمل البلاد بلاد لم نزرها بعد، وأجمل الأيام يوم لم نعشه بعد، وأعمق البحار بحر لم ترتده أشرعتنا بعد، سافرت وشربت من ينابيع بعيدة في جبال تقع في آخر الدنيا، تحدثت إلى عجائز لم يسمعوا باسم مدينتي ولم يخطر ببالي يومًا أنني سأرى قراهم، وأجلس معهم على المقهى ذاته، علمتني أيام السفر معنى أن تمتلك صديقًا حقيقيًّا لا تعرفه إلا في السفر، يحتمل شيطناتك ونزقك وكسلك وتقلب مزاجك، وتطلبك الذي
لا ينتهي، سافرت وعرفت أن من لم يسافر لم يكبر كما يجب، لم يكبر قلبه، ولم تنمُ معرفته، وأنه قد فاته الكثير مما يجب أن يراه.

سافرت لأول مرة حين كنت صغيرة جدًّا لا أعي معنى السفر ولا الانتقال عبر الزمن والمسافات، كان من عادة الناس في دبي أن يسافروا طيلة أشهر الصيف اللاهبة إلى مناطق بعيدة باتجاه الشرق إلى مناطق تقع اليوم في سلطنة عمان (رؤوس الجبال) للتمتع بخيرات الصيف هناك، كانت الرحلة تستغرق أيامًا عبر سفن ضخمة تشق طريقها في الخليج أيامًا وليالي، هناك كنا نستقر في بيوت تصنع من جريد النخل بطريقة هندسية لطيفة توفر الحياة الخفيفة والعيش البسيط، كانت القرية (اسمها اليادي) التي نسكنها صغيرة جدًّا تقتات من أعمال البحر وبساتين النخيل، تعبق برائحة الليمون والمانجا، وكانت تبدو وكأنها انبثقت من ضلع الجبل الأجرد المنتصب أمامنا كإله أسطوري خارق، (اليادي وينطقها أهلها الجادي) كانت في تلك السنوات قرية مزارعين وصيادي أسماك، لا يؤرقها شيء، في الليل تتكئ برأسها على كتف الجبل الأجرد، وتغسل أقدامها في البحر طيلة النهار، جزؤها العلوي جبل وجزؤها الأخير بحر، وفي منتصف المسافة أرض منبسطة، بسيطة، ومحروسة بالنخيل وقبور الأسلاف وبيوت الطين والجريد وخرافات الجن والبحر!

كان يمكننا أن نقطعها سيرًا على الأقدام من شرقها إلى غربها في ساعات الصباح الندية، كل ذلك السحر وحكايا الجن لم يخففا عني يومًا وطأة الحر والرطوبة الشديدة التي كنا نتخبط فيهما ليلًا ونهارًا، لا ينقذنا سوى السباحة في البحر والمراوح التقليدية التي كانت الأمهات يستخدمنها للتغلب على الحر الشديد!

في تلك السنوات المبكرة جدًّا، وحين لم أجد كطفلة صغيرة ما يملأ شغف طفولتي شغفت بالإذاعة وبالكتب، تعلقت بالراديو وصرت أتابع صوت الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، وأستمع إلى حكايات أمي التي كانت بدورها تتابع أحمد سعيد عبر صوت العرب من القاهرة، بينما يسبح أبي مع أفكار لا نهاية لها وهو ينصت متبتلًا في حضرة صوت الست «أم كلثوم»، لا يهم أمي أي شيء في ليالي الصيف تلك أكثر من تحريك المروحة اليدوية لتؤمن لي ولإخوتي الصغار شيئًا من الهواء البارد كي ننام.

بعد أسفار الطفولة تلك، سافرت لأول مرة بالطائرة إلى كراتشي، وقد امتلكت بعض العمر والمعرفة، كانت باكستان نهاية السبعينيات هائجة بالمظاهرات والصدامات الدامية بين السلطة والشارع، في تلك الفترة من عام 1979 وجدتني في شرفة منزل أقمنا فيه صيف ذلك العام، وإذ

نسيت كل تفاصيل ذلك الصيف إلا أنني لن أنسى القنبلة المسيلة للدموع التي قذفت من مكان ما واستقرت في شرفة غرفتي حيث أقف، شعرت كأن أحدهم سكب لهبًا في عيني، وتعالى صراخي بشكل لا يصدق في ذلك المساء الذي كانت فيه المدينة تغلي بالمواجهات(1).

ولأننا من الجيل الذي تمتع بنعم البدايات فقد سافرنا إلى عدة مدن في رحلات كانت تنظمها جامعة الإمارات التي كنت أكمل فيها دراستي الجامعية، طالبات كلية العلوم السياسية كان نصيبهنّ من السفر الكويت والبحرين! لأسباب تخدم منهاج الإدارة، فقد كانت الكويت تشهد ازدهارًا سياسيًّا لافتًا، بينما البحرين كانت تطبق سياسة توطين الوظائف لأول مرة على صعيد دول الخليج، وكان مطلوبًا أن نطلع على هذه التجارب الرائدة، وكانت رحلة لا تنسى هي الأخرى، المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى واشنطن كانت العام 1989، كان أخي يدرس الهندسة في واحدة من جامعاتها العريقة، هناك أقمت في فرجينيا، واتسع وعيي على الكثير من الحقائق، زرت البيت الأبيض ووقفت أمام تمثال إبراهام لنكولن، ورأيت كيف ينظر الأمريكان السود لهذا الزعيم التاريخي، وكيف كانوا يحلمون برجل آخر ينصفهم بشكل تاريخي، حتى جاء أوباما رئيسًا أمريكيًّا أسود لأول مرة في تاريخ أمريكا، فأحسوا بأنهم أزاحوا عن كاهلهم ظلم قرون من العنصرية!

تأملت حائط ضحايا فيتنام الرخامي الأسود المليء بأسماء الضحايا والمحفورة في عمقه بلون ذهبي كما هي في عمق الوجدان الجمعي الأمريكي، عند هذا الحائط يأتي السياح لالتقاط الصور، ويأتي الأمريكيون لتذكر ضحاياهم، يضعون باقات الورد والكثير من الهدايا أسفل الحائط ويمضون، يأتي بعدهم متسكعون يأخذون تلك الباقات والهدايا ليبيعوها لآخرين يضعونها بدورهم أسفل الحائط نفسه. في قلعة الرأسمالية لاحت في ذهني أفكار الاشتراكيين الكبار فابتسمت!

وقفت طويلًا أمام مسلة واشنطن الشهيرة التي تشكل مع البيت الأبيض ونُصُب لنكولن امتدادًا مستقيمًا لا يتسق مع سياسة الولايات المتحدة غير المستقيمة! زرت متاحف واشنطن؛ متحف الفن الحديث، متحف التاريخ الطبيعي، متحف الطيران... تجولت في أشهر جامعاتها، ومشيت في شارع «بنسلفانيا» الأشهر فيها حيث البيت الأبيض مركز القرار ومهوى أفئدة العالم. ولأجل علاج أمي قضيت قرابة الشهرين في أحد أشهر مستشفيات العالم التي تقع في مدينة صغيرة حالمة في الشمال الأمريكي اسمها «روشستر» بولاية مينيسوتا، كان ذلك في العام 1993، هناك في الولايات المتحدة بداية سنوات التسعينيات ازداد وعيي واتسعت معارفي وتلمست أعظم القيم التي تضبط إيقاع الحياة الأمريكية، هناك راكمت الكثير من الأفكار والرؤى والقناعات والأحلام أيضًا، وهناك بدأت رحلتي مع الكتابة في صحيفة البيان العام 1997.

سافرت بعد ذلك إلى بريطانيا لأكمل دراستي للماجستير، امتحنت قدرتي على احتمال الحياة في بلدان الاغتراب، فكانت نتيجتي صفرًا من عشرة في امتحان احتمال الغربة، عدت إلى دفء أمكنتي وأمي وحياتي وأصحابي، لم أخسر شيئًا، بل على العكس عدت ممتلئة بالكثير من الصداقات والقراءات والمواقف والاختبارات والفرح والحزن والوجوه والمشاهد والتجارب، وببساطة حين أغمض عيني اليوم أستطيع أن أتذكر الصديقات الصينيات اللواتي تعرفت إليهن في جامعة كاردف

في بريطانيا، والأرجنتينيات والبرازيليات والكويتيات اللواتي تعرفت إليهن في فصل اللغة بأحد معاهد تعليم اللغة الإنجليزية في العاصمة واشنطن، كما أستطيع أن أروي الكثير من حكايات المسز «أديث» الأمريكية التي درست على يديها اللغة الإنجليزية ودارت بيني وبينها مراسلات كثيرة بعد عودتي إلى دبي، كانت مأزومة في علاقاتها العاطفية، كانت تبحث عن الحب والأمان بأية طريقة، حتى إنها أحبت شابًّا مكسيكيًّا، كان أحد طلابها، وكان يصغرها بعشرين عامًا، ربطتني بها علاقة إنسانية جميلة سرعان ما توارت في غياهب البعد والانشغالات، لكنها من الحكايات التي كلما استعدتها ابتسمت.

وبدءًا من صيف 2001 توقفت عن زيارة واشنطن لأرتبط بمدينة ميونخ الألمانية ولسنوات طويلة كونت هذه المدينة في داخلي حمولة من الذكريات لا تمحى، أحببت ريفها، تاريخها، قصورها، الساحات والكاتدرائيات والنزهات والأصحاب والتسكع أيام الآحاد في محطتها الرئيسية الكبرى «الهابنهوف» والسفر منها عبر أراض شاسعة ومسافات طويلة إلى مدن بعيدة بعضها لم أعد أتذكر أسماءها.

الشعب الألماني من أكثر الشعوب تقدمًا وهم شعب كثير العمل قليل الضحك والابتسام، شعب كرس جل وقته للعمل وبجدية متناهية منذ انهياره المدوي في الحرب العالمية الثانية بسبب حماقات الحزب النازي ورئيسه أدولف هتلر، يقال إن الألمان صاروا في السنوات الأخيرة يتعلمون الضحك في مدارس خصصت لهذا الغرض، لهذا فهو شعب لا يعرف من لهو الحياة سوى الطعام والخمر والعمل، أما العلاقات الاجتماعية فلا محل لها إلا نادرًا جدًّا، هم شعب عظيم وجاد وشديد الفخر بنفسه وبحضارته، يمتلك واحدًا من أقوى اقتصادات العالم وواحدًا من أقوى الأنظمة السياسية وأكثرها استقرارًا وديمقراطية، وقد علمني التردد على بلادهم ولسنوات طويلة أن تثبيت مسمار في جسم سيارة المرسيدس أهم من صناعة هيكل السيارة الفخم، وأن السمعة الألمانية العريقة وراءها تاريخ طويل من العمل والمثابرة الجادة، حيث الجودة أساسها الإتقان في العمل والدقة في التفاصيل، وهذا هو المبدأ الأول في درس المعجزة الصناعية الألمانية المعاصرة.

وأغرب الأسفار تلك التي قطعت فيها آلاف الأميال لحضور حفل غنائي للعظيمة فيروز في لبنان والبحرين، ومن ألمانيا عدت ذات يوم إلى دبي لأحضر حفلها وأعود ثانية!!

سافرت للمتعة والبهجة وتجمعات الأصدقاء، وما زلت أحن لتلك الشوارع والطرقات المرصوفة بالحجارة القديمة والمبللة بأمطار الليل، ما زلت أحن لساحة سان ماركو الرومانسية في فينيسيا ولجولات الجندولا، ولشرفة جولييت في مدينة فيرونا، ولمقاهي شارع الماكسيميليان في ميونخ، وللفناء الرخامي المشع بأنوار البيت العتيق والمسجد الحرام بمكة المكرمة، ولساحة الكنيسة القديمة في المارين بلاتز، وذلك الشاطئ الذهبي الخلاب في الجولد كوست بأستراليا، لشوارع سنغافورة ومدينة بومبي الهندية وباريس ومطاعم بروكسل والجولة النهرية في مدينة بروج البلجيكية الهادئة والتبضع في ستراسبورغ الفرنسية وبانكوك التايلندية، وأجمل الطعام ما كان مصحوبًا بالموسيقى في مدينة الموسيقى والجمال: فيينا... مدن كثيرة بعضها تلاشى في تلافيف الذاكرة.

سافرت العالم شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، وكثيرًا ما وقفت مودعة في المطارات ومستقبلة في صالات انتظار أخرى، لطالما دفعت حقائبي وحيدة في محطات بعيدة وركبت قطارات وغادرت محطات أخرى أكثر بهجة مما توقعت، حزنت كثيرًا وفرحت أكثر وضحكت حتى سالت دموعي، عشت لمة الأصحاب وفرح اللقاءات، كما عشت الوحدة وأسى الفراق، وأخيرًا فهمت كيف أن الإنسان ليس أكثر من طائر صغير مسكون بالشغف والحرية والتوق إلى المجهول، يحلق في كل الفضاءات ويُسافر في كل الدنيا، لكنه أبدًا لا يقاوم حنين العش الأول، ولحظة الأنس بأحبته وأهله وبلده ورائحة أمه!

الإنسان كطائر يحلق حتى آخر الدنيا، صباحًا يكون في أرض وبين أناس، وحين يهبط عليه الليل إذا هو في بلاد أخرى وتحت سماء مختلفة يحتسي قهوته مع آخرين في انتظار موعد طائرة أخرى أو موعد صديق أو طبيب أو منتدى، طائر حقيقي يظن نفسه أكبر من كل شيء، يحاول أن يكون أكبر من توقه وفضوله لكنه غالبًا ما يخفق!

(1) شهدت باكستان حالة من الفوضى والاضطراب، وزادت حدة المعارضة - خاصة الإسلامية- ضد الرئيس بوتو الذي نكّل بخصومه الذين انتقدوا توجهاته الغربية العلمانية، وزادت حدة الاضطرابات في باكستان وتدهور الوضع السياسي، وسقط الكثير من القتلى وآلاف الجرحى من جراء العنف السياسي. الأمر الذي هيأ لقائد الجيش الجنرال ضياء الحق فرصة القيام بانقلاب عسكري وفرض الأحكام العرفية في البلاد. وسجن الرئيس ذو الفقار علي بوتو بتهمة قتل المعارضين، فحكمت عليه المحكمة بالإعدام، لم يقبل ضياء الحق طلبات دولية عديدة لتخفيف الحكم وأعدم ذو الفقار بوتو شنقًا في السجن عام 1979. فاشتعلت باكستان على إثر ذلك.

دبي.. أبجدية البحر والحياة

دبي مدينتي التي ولدت ونشأت فيها، وفيها تعلمت أبجدية البحر والصحراء، والحب واللعب وشغف الأسفار، ولسبب مجهول لم أعرفه حتى اليوم تكرس من خلالها عشقي للجبل ولناسه وبيوته، دبي ابنة البحر والشطآن والموانئ، مدينة خالية من التضاريس الملتوية والملتبسة والنتوءات، دبي مدينة سهلة كنهار، وعميقة كنظرة وصعبة كصحراء، مكشوفة وواضحة كالضوء، لكن لسبب ما
لا أعرفه وجدت نفسي متعلقة بكل المناطق والمدن الجبلية، أحببت الجبال في مدن الجبال الخضراء البعيدة، متتبعة هواء الجبال وشغف قلبي، ونازعة صوب السكون والفرادة. هناك وقعت في هوى كل شيء، الأشجار، المقاهي، الأطعمة التي يصنعها الناس في القرى الجبلية، العيون الأكثر زرقة للأطفال هناك، وثياب النساء الملونة والمزدانة بالأشرطة والأزرار المصنوعة من عظام قرون الوعول الجبلية، بينما للسبب المجهول نفسه كان أغلب من حولي واقعين تحت وطأة الخوف من صعود المرتفعات أو ما يعرف بـ «فوبيا المرتفعات».

دبي مدينة يمكنها أن تثير أعصابك بزحامها في كل الأوقات، في منتصف الظهيرة تحديدًا أو في ساعات نهاية اليوم بمجرد أن يهبط المساء عليها بغتة، مع ذلك فدبي مدينة شديدة التنظيم والترتيب فهي ليست السبب إذن، المدن
لا تخترع زحامها، الناس يريدون أن يحصلوا على كل التفاح مرة واحدة، يريدون أن يعملوا في دبي في وظائف مرموقة وبأجور عالية ويريدون أن يتسوقوا في دبي ويجلسوا في أرقى مطاعمها ومقاهيها، ويطلقوا العنان لأقدامهم لتجوب أجمل مماشيها وشواطئها ومراكزها التجارية، ويضعوا على سياراتهم لوحات أرقام تحمل اسمها.. لكنهم لا يريدون أن يقطنوا فيها لأن المعيشة فيها باهظة التكلفة والناس لا يريدون أن يدفعوا ولكنهم يريدون أن يعيشوا!!

ثنائية المكان والزمان، الحلم والواقع، الإقامة والحياة في مكانين مختلفين تكلف دبي غاليًا وتدفع ثمنها باهظًا جدًّا وفي كل لحظة.

دبي بالنسبة إليّ كواحدة من أبنائها الإقامة والمعيشة والحياة والذكريات والطفولة والعائلة وأصدقاء العمر والمدرسة الأولى ومرابع اللهو وسور المدينة الوهمي القديم، دبي هذا كله وأكثر بكثير.

نحن أطفالها الذين كبرنا معها، نعرفها على وجه الدقة، نعرف أسماء أحيائها القديمة وأسواقها، بيوتها، ومدارسها ومستشفياتها، شواطئها ومحلاتها وشوارعها، طفولتها يوم كانت طرقاتها ضيقة متربة وبيوتها متجاورة كأجساد العشاق، نعرف شبابها البهي ومنتهى جمالها وطموحها ومغامراتها وإيمانها بنفسها وبالغد وولعها بالمختلف والجميل، دبي مدينة كصبية اعتادت البذخ، في كل صباح ترتدي معطف البحر وتتعطر بالنهار وتمضي توزع الأمل والحلوى والهدايا والأمنيات والوعود، وتسيج نفسها جيدًا من عيون قطاع الطرق ولصوص المدن.

نحن أبناؤها الذين نحبها كما نحب أصدقاءنا وإخوتنا ومدرستنا وألعابنا، نحبها بشكل يشبهها ويشبهنا، ننتظر المساء لتلقي برأسها على أكتافنا، لتقول لنا وحدنا أحلامها وتشكو لنا أوجاعها، ومخاوفها التي لا تخاف منها إلا علينا، ثم تنام وفي بالها دومًا أغنية للبحر ولأحلام الناس.. كل الناس، فالمدينة
–أي مدينة- كمثلنا تمامًا تتوجع وتتألم، وتحلم وتعشق، وحدهم الذين خلقوا من رحمها يشعرون بها كما يجب ودون أن تتكلم.

علمتني هذه المدينة كيف ألعب مع الريح ومع البحر، وكيف أتحدث مع الغرباء، وكيف أمد إليهم يدي، ففي الحي(1) الذي تربيت فيه زمن طفولتي كان فناءً شاسعًا يحتل جزءًا كبيرًا من جهته الشمالية، ويسكنه غرباء جاؤوا من وراء البحر كما كانت تحكي لنا جدتي، كنا ندخل الفناء بوجل ونجلس ننظر إليهم، ثم لم نلبث أن صادقنا أطفالهم وعرفنا أسماء نسائهم ورجالهم، وبرغم أنهم لم يكونوا يتحدثون لغتنا إلا أن الأطفال لهم طريقتهم الخاصة في الحديث لعبًا!!

مدينتي التي دائمًا ما أراها تنام في حضن البحر هي وحدها من علمتني كيف أقذف نفسي في البحر حد الغرق لأتعلم، ولقد غرقت أكثر من مرة وتسرب ماء البحر إلى جوفي مالحًا، حارقًا، حادًّا كالعشق، لكنني تعلمت وعرفت كيف يجدف الإنسان بذراعيه حين ينكسر المركب أو تهب الرياح عاتية على غير توقع.

وحين لم تكن هناك صحف ولا دكاكين تبيع الكتب وكانت القراءة شحيحة والذين يقرؤون يتلهفون على الكتاب ويشتهون الصفحات. علمتني هذه المدينة كيف أقرأ لدرجة الظمأ، لذلك لم أشبع من الكتب يومًا، علمتني أن الإنسان
لا يكون إنسانًا إلا إذا أعطى وبذل وصارع وتحدى وآمن بأحلامه وقدره ونفسه وبالنور والنهار، لأن الظلام عارض مؤقت، علمتني أول ما علمتني الحب، الدرس الأول الذي تعلمه أي مدينة لأبنائها.

(1)يمكن القول: إن تأسيس دبي يعود إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر (تحديدًا في عام 1833) عندما استقر ما يقارب من 800 شخص ينتمون إلى قبيلة بني ياس بقيادة آل مكتوم عند منطقة الخور، الامتداد المائي لمياه الخليج العربي في جسد مدينة دبي، لقد كان الخور وقتئذ يشكل ميناءً طبيعيًّا للمنطقة، مما أدى لاحقًا إلى بروز دبي كمركز لصيد الأسماك وتجارة اللؤلؤ والتجارة مع الهند وإيران وموانئ المحيط الهندي وبحر العرب.

مع بداية القرن العشرين كانت دبي ميناء شهيرًا، وكان إجمالي عدد سكانها لا يتجاوزون الـ 20,000 نسمة، شكل المقيمون نسبة الربع منهم.

اكتشف النفط في دبي العام 1966، ومنذ ذلك التاريخ عمل الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم على استثمار وارداته في تطوير البنية التحتية للإمارة التي شهدت ميلاد مشاريع عدت يومها سابقة

لزمانها وضربًا من الجنون في حجمها وإمكانياتها قياسًا بتلك السنوات البطيئة الحركة.. دبي قامت على أساس رؤية تقدمية جدًّا ترتكز على التفكير في المستقبل دائمًا.

يعتبر الشيخ محمد بن راشد حاكمًا عربيًّا صاحب رؤية مختلفة وسابقة لزمانها، فله الفضل الأول في وصول دبي إلى المكانة العالمية التي تحظى بها باعتبارها تجسيدًا لفكرة مدينة الأحلام المتكاملة القائمة على الابتكار وتشجيع المبادرات والفرص وتوفير أفضل مستويات المعيشة والخدمات، دبي التي أصبحت بحق أيقونة في فنون الإدارة والاقتصاد الرقمي والتطور العمراني ومهوى أفئدة الملايين.

حديث أمي.. ومدينتي

تقول أمي إنه في أواخر عهدنا بحي «عيال ناصر» كان يلاصق بيتنا من جهة البحر بيت كبير جدًّا تسكنه عائلة يشتغل رجالها بتجارة بيع الأقمشة، الأب الكبير واثنان من أبنائه، تعود أصولهم إلى إيران، قدموا منها سنوات الثلاثينيات عندما كانت الأزمة الاقتصادية الكبرى تعصف بمصائر الناس هنا وفي كل مكان، إلى درجة أن كثيرين قد ماتوا من الجوع، وتركت أسرٌ بيوتها، ورحلت إلى دول أخرى قريبة، بحثًا عن العمل والرزق، كانت مدينتنا على الرغم من الأزمة أفضل حالًا من غيرها لكونها ميناءً مفتوحًا على العالم ولكون أهلها تجارًا وأهل سفر وسفن، لذا تمكنوا من الصمود أكثر من غيرهم، واستقبلوا في مدينتهم أعدادًا كبيرة من العائلات والمهاجرين الذين وفدوا إليهم من كل المناطق، وقد استقر هؤلاء في أحياء جديدة عرفت بأسماء مناطقهم التي جاؤوا منها أو العائلات التي ينتمون إليها، فاتسعت المدينة ونشطت أكثر وتغير كثير من ملامحها، معتمدة على الانفتاح والتسامح وقبول الآخر، لكنها حافظت على رصانتها على طول الخط، فلم تتسامح مع هؤلاء القادمين حين كانوا يتجاوزون الخطوط الحمراء، فيما يخص ما اعتادوا عليه من موروث العادات والسلوك.

حدثتني أمي أيضًا عن مدير الميناء الأول القديم في المدينة، عبيد بن سالم، الرجل الصارم كاسمه والقليل الكلام، كلمته نافذة على الكبير والصغير لا ترد ولا تكسر لأي ظرف كان، كانت النساء يخوفن أبناءهن به، وكان الصبي إذا قيل له سأخبر عبيد بن سالم بما فعلت، يرتعد كمن أصابته حمى، كان طويل القامة في غير إسراف، نحيف الجسد لقلة ما يتناوله من طعام، يعتمر عمامة بيضاء، يلفها بإحكام على رأسه، فلا يرى إلا معممًا، ثيابه البياض دائمًا، وكان يرى أن الرجل الذي يلون في ثيابه يفقد موروثات أهله وعادات الرجال، لا يحب تقليد الآخرين في ثيابهم أو مطعمهم أو طريقة كلامهم، كان يسير في أحد الأزقة يومًا عائدًا من الميناء إلى بيته فرأى فتى في آخر الزقاق صرخ فيه أن يتوقف بمجرد أن لمحه، ناداه أن يأتي ووقف حتى وصل الفتى ووقف أمامه منكس الرأس، سأله عن اسمه واسم أبيه، ثم وضع يديه في فتحة ثوب الفتى عند العنق وشقها إلى نصفين، كاد الفتى يتبول على نفسه من الخوف، ولو فعلها لكان حدث له ما
لا يحمد عقباه، قال له: اذهب إلى أبيك، وقل له عبيد بن سالم فعل بي ذلك، وقل له: إذا سألك عن السبب بأن الرجل إذا غير ثوبه فرط في شرفه!

حدثتني أمي عن امرأة كانت كنيتها المجنونة، ولطالما تجنبها الناس ودعوا الله أن يجنبهم أذاها، جنونها اتخذ مسارًا عجيبًا، لم تكن تؤذي الصغار أو ترمي المارة بالحجارة، لكنها تعرف على وجه الدقة متى تنتهي نسوة الحي من إعداد طعام الغداء، فتغافل أهل البيت الذي اختارته، وتسرق قدر الغداء، وتنطلق به باتجاه البحر، تدخله حتى يظن من ينظر إليها أنها على وشك الغرق، لكنها تتوقف في اللحظة الحاسمة مفرغة القدر في لجة البحر وعائدة من حيث جاءت، فإذا اكتشف أهل الدار الفاجعة، وصادف أن التقوها سألوها: لماذا فعلت ذلك؟ لماذا تحرمينا من الغداء اليوم؟ تقول كمن

تفلسف جنونها اللا مبرر: هناك مخلوقات أخرى أيضًا تريد أن تتغدى وتأكل، لستم وحدكم في هذا العالم!!

حدثتني أمي كثيرًا عن امرأة كانت تعرف لغة الكون ماذا تقول الريح، وبماذا يهمس الموج، وهو يتدحرج على الشاطئ في أبديته اللا نهائية، كانت تحب القطط، وتعالج المرضى، وتمسح على أصحاب القروح والأوجاع المستعصية، كنت أسمعها، وأتذكر شخصيات مشابهة صادفتها في حكايات وروايات كبار روائيي أميركا الجنوبية ومصر وفرنسا ولبنان والجزائر، هناك شخصيات ثابتة لم تكن المدينة تخلو منهم: المجنون، ورجل الدين، والمرأة، والرجل المتناهي النورانية، المدن كانت كأنها ولدت من رحم واحدة تتشابه في جيناتها وملامحها في مختلف أرجاء الكرة الأرضية، ربما لأن الإنسان الذي بناها ينطلق من الجذر نفسه!

فريج عيال ناصر

ستبقى مجتمعاتنا ممتدة ونابضة بالحياة طالما بقيت تحتفظ بذاكرتها طازجة محمية من العطب وعصية على الفقدان، ذاكرة المجتمع هي الذاكرة الجمعية لكل الأفراد، لعاداتهم وسلوكياتهم العامة لموسيقاهم وأغنياتهم العلنية، لألعابهم وطقوس أعراسهم وأعيادهم وأحزانهم، لأسماء أطفالهم وأشكال ثيابهم وأطعمتهم ولهجتهم وكل ما يشكل الهوية الجامعة للأفراد والتي تحرص الأمم على جمعها وحفظها حيثما وجدت.

الذاكرة المعطوبة بداية الطريق نحو التلاشي، فعندما تظهر علامات النسيان على الإنسان، ويبدأ في فقدان بعض الخيوط تبدأ مروياته ولائحة الأحداث والأسماء لديه بالتفكك والتساقط من سلة الزمن، عندها يضع جميع من حوله أيديهم على قلوبهم انتظارًا لرحيله، ففقدان الذاكرة إحدى علامات النهاية المؤكدة، وحتى لو لم يمت، فإن إصابته ببياض الذاكرة، أو بالذهن الخالي من أي تدوين وكأن صاحبه لم يقترف فعل الحياة بعلنية صاخبة، معناه أن هذا الشخص أو المجتمع لم يعد موجودًا بالفعل!

الأفراد كالمجتمعات تمامًا فطالما بقينا متنبهين لحفظ ذاكرتنا، ذاكرة آبائنا وأمهاتنا، ذاكرة أحيائنا وعلاقاتنا في تلك الأحياء، أشكال بيوتنا، أسماء العائلات والأسر التي سكنَّا بجوارهم أو جاورونا لبعض الوقت، الحِرَف التي وجدنا أهلنا يمارسونها، الرجال الذين لعبوا أدوارًا مميزة في حياة تلك الأحياء، المسجد الأول والمدرسة الأولى والمشفى الأول، أول من اشترى سيارة وبنى مسجدًا وسافر ... إلخ، هذه ذاكرتنا الخاصة، ولكل منا ذاكرته الثرية الغنية التي لا تشبه غيرها لكنها يمكن أن تتقاطع مع غيرها، لأننا جميعًا ننتمي للجذر نفسه!

لقد أصرت أمي على أن تطلق اسم «خليفة» على ابن أخي «ناصر» ما جعل ذاكرتنا تستنير فجأة مستدعية الاسم في معناه الكبير الذي استقر في داخلنا،
فـ (خليفة بن ناصر) رحمة الله عليه واحد من ثلاثة إخوة رجال، حمل حي بأكمله في ديرة اسم والدهم «ناصر»، إنهم عيال ناصر الذي تسمى الحي بهم «خليفة وسلطان وعبد الله» أبناء ناصر السويدي.

أما الحي، فهو «حي أو فريج عيال ناصر»، سكنته عائلتي سنوات الخمسينيات كما ذكرت لي أمي، كان أهله مزيجًا من عائلات دبي وآخرين قدموا من إمارات أخرى. الرجال يعملون إما بالتجارة أو بالغوص أو الصيد أو صناعة السفن ولوازم صيد الأسماك، كان يطل على البحر مباشرة، وكان خليفة بن ناصر أحد أشهر رجال ذلك الحي، كان رجل «بر» يذهب باستمرار للقنص، وكان الوحيد الذي يمتلك سيارة جيب لاند كروزر خضراء اللون خاصة به، عندما كان يشغلها في صباحات الشتاء الباردة في وقت مبكر لتسخين محركاتها كانت تصدر صوتًا يسمعه أهالي الحي كلهم.

كان مجلسه مكانًا لتجمع الرجال يوميًّا طيلة شهر رمضان، يجتمعون للإفطار في مجلسه، فقد كان الوحيد الذي يمتلك مجلسًا كبيرًا يتسع للجميع، وكنا كأطفال نخرج من كل البيوت حاملين أطباق طعام الإفطار إلى ذلك المجلس قبيل الأذان بقليل.

«خليفة بن ناصر» رجل من زمن الطيبة، من ذاكرة فريج «عيال ناصر»، لم ينجب أبناءً، وظل مكتفيًا بزوجته الطيبة البشوش، إلى أن توفيت منذ سنوات قليلة، فتزوج بفتاة صغيرة كما سمعت، وبعدها لحق بزوجته، رحمه الله!

مدرسة البنات.. الأولى

كسرت المدرسة فكرة اختباء البنت في المنزل بعد بلوغها العاشرة من العمر، ففي تلك السن المبكرة جدًّا كان ينظر للبنت على أنها مشروع مبكر لأنثى يجب أن تعد للزواج، ولذلك فلا بد من أن تختبئ في البيت لحين يطرق الباب الخاطب المناسب، كان تعليم البنات يتوقف عند معلم القرآن أو المطوع في مدرسة تحفيظ القرآن، ولقد درست أغلب بنات جيلي في هذه المدارس، وما زلنا نتذكر معلمينا أولئك حتى اليوم لأنهم أول من فتحوا لنا بوابات الحرف، وأناروا لنا نوافذ العلم عبر سور الذكر الحكيم.

كسرت المدرسة الرسمية للبنات محرمًا كان سائدًا حتى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي تقريبًا، وبدأت بعثات التعليم من دولة الكويت تتولى بناء المدارس عندنا في دبي كما في باقي الإمارات، وبدأ طقس جديد تمامًا يبزغ في أحياء المدينة القديمة بخروج البنات للمدرسة، بأزياء غير معهودة تمامًا، وبما أن أهل الساحل منفتحون كما هو معروف عنهم في كل مكان، فقد ألف الناس الحكاية منذ السطر الأول، فصار خروج الفتيات للمدارس أمرًا تتباهى به الأسر كما يتباهى الصغار بالخروج المبكر للمدارس مشيًا على الأقدام، لم يكن في المنازل سيارات خاصة تنقل الصغار للمدارس كما أن فكرة الباصات لم تأت سريعًا في البداية، فكانت رحلة الذهاب للمدرسة مشيًا على الأقدام تحمل في تفاصيلها الكثير من دهشة المشاوير البكر لعالم المدرسة المدهش، كما يحكي لنا أولئك الذين شكلوا الرعيل الأول لطلاب المدارس!

ما زلت أتذكر مدرسة الخنساء الابتدائية التي كانت أول مدرسة ابتدائية للبنات في منطقة ديرة، كانت تقع في بداية تأسيسها في منطقة نايف قرب مركز شرطة نايف حاليًّا، كنا نظنها أكبر بناء في تلك الأيام، وكان يتراءى لنا بأننا مهما مشينا في ساحة المدرسة، فإن الوقت سينتهي بينما لن نصل إلى نهاية المدرسة لاتساعها، كان باب المدرسة الحديدي كبيرًا جدًّا يتسع لأكثر من 300 طالبة أو أكثر يخرجن منه دفعة واحدة وقت الظهيرة، لكننا فوجئنا بأن المدرسة صغيرة جدًّا وبأن بابها أصغر من أن يكفي لخروج بضعة أشخاص، هكذا وجدنا مدرسة الخنساء حين عدنا إليها كبارًا بعد أن تخرجنا في الجامعة.

كان عصر الخميس أسعد لحظات الأسبوع كله، حيث تنتهي ستة أيام من الدراسة المتواصلة، فقد كنا نبدأ يوم السبت وننتهي بنهاية عصر الخميس، ولم تكن هناك إجازة سوى يوم الجمعة فقط. كنا نقضي معظمه على شاطئ البحر فبيوتنا كانت تطل عليه، وعيوننا كانت معلقة به، وطعم الملح يكاد ينضح من مساماتنا ونشمه حتى أثناء نومنا، لقد كان البحر رفيق طفولتنا، ومحطة لعبنا الأولى ونهايته، وحين يفتقدنا الأهل كانوا يبحثون عنا كطيور النورس على سيف (شاطئ) البحر، أحيانًا كنا نكره المدرسة لأنها كسرت علاقة الحب المسترسل مع البحر، في الحقيقة لقد هلت سنوات السبعينيات بعواصفها لتكسر الكثير من رتابة المشهد العام في كل المدينة بأناسها ومبانيها وعلاقات أهلها ببعضهم وبالبحر وبكل التفاصيل.

على ضفة خور دبي

حين أخذتني طرقات المدينة إلى السوق القديم على الضفة الأخرى لدبي، كنت كمن يجتاز سورًا وهميًّا ما بين اليوم والأمس، كنت بحاجة لأصوات البارحة، ولتفاصيل وجوه المكان الذي يكاد يختفي تحت أقدام القادمين، مشيت، تأملت، تفرست في كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة، قبل أن أصطدم به، كان يجلس على كرسي متهالك وهو بالكاد يقوى على النهوض، رجل أخذ منه العمر ما أخذ، فما أبقى منه سوى جسد، بينما تكمل السجائر على ما تبقى منه، بأصابعه النحيلة كان يمسك سيجارة لا تفارق شفتيه، بينما يده الأخرى تلملم الغبار عن بقايا بضائع عجيبة.

ليس له دكان أو محل، لكنه كان يفترش الأرض، ويجلس على كرسي دوار ممزق ورثّ، وعلى تلك (الفرشة) كان يضع أشياء عجيبة يعرضها للبيع بكل فخر، كان واثقًا بأنه يبيع أثريات يقبل عليها السياح الأجانب - هكذا كان
يقول- فإذا نظرت إلى أثرياته وجدتها لا تعدو أحجارًا كريمة من النوع العادي جدًّا، سُبحًا ملونة من كل نوع، قواقع وأصدافًا بحرية، أغطية قديمة لزجاجات مياه غازية إنتاج الخمسينيات ربما، ورق لعب مستخدمًا، بطاقات هواتف مستخدمة، راديو قديمًا، علبًا فارغة وساعات مهترئة!

أجلسني وأعطاني حجرين، وقال لي: رجيهما بين يديك الاثنتين وأعطيني إياهما، فعلت، أخذهما وصار يتأمل ويقرأ، قال أشياء كثيرة على سبيل قراءة الطالع ولم يوفق في شيء مما قاله، لكنه كان يمارس عملًا اعتاده على أية حال.

سألته كيف يحفظ أشياءه من السرقة والعبث إذا أغلق السوق، قال: أغطيها بغطاء سرير كبير، وأتركها في حفظ الله، البلدية تسمح لي بذلك نظرًا لظروفي، يتحدث فلا يبخل عليك بشعر جزل يحفظه عن ظهر قلب، يوصيك بوالديك وبالصلاة والخلق القويم مع الناس، يقول إنه عاصر المدارس القديمة ودرس مع كبار شخصيات البلد، ويذكر لك حكاية رحلة الباص الذي ذهب فيه تلاميذ مدرسة الأحمدية في أول رحلة مدرسية منذ سنوات طويلة في بداية الأربعينيات، وانقلب بهم، وعدت الحادثة يومها كارثة لأن بعض الصبية فارقوا الحياة.

طلبت الحجرين منه، ونقدته ثمنهما مضاعفًا، ثم شكرته مودعة، بينما كان يتمنى عليّ أن أزوره مجددًا، فلم أعده لكنني ابتسمت له ومضيت، حيث ينفتح فضاء السوق على هدير الشارع، وحيث يقف الجميع لتناول كوب حليب كرك من بائع يفتح دكانه على رأس الشارع المتقاطع مع السوق، هناك تجد بعض السياح، وبعض رجال الشرطة وبعض المارة يقفون في انتظار دورهم، وغير بعيد تجلس مجموعات بانتظار قارب ينقلهم لضفة ديرة في الجهة المقابلة.

تقف وأمامك الخور، قصة العلاقة الأزلية بين دبي والبحر، بين المجتمع والتجارة، بين التجار والعالم حولهم، بين الحياة وأسطورة دبي، تقف بينما تشمخ أمامك مبان عملاقة ذات سيرة خالدة في حياة المدينة كمبنى غرفة تجارة وصناعة دبي، مبنى بنك دبي الوطني، مبنى اتصالات، والبرجان

التوأمان، حيث احتل نادي دبي للصحافة فيما مضى الطابق رقم (21) قبل أن يستقر أخيرًا في منطقة البستكية.

خرجت إلى فضاء الشارع، واجتزت نقطة تجمع ركاب القوارب العابرين ضفتي الخور في قوارب تهدر محركاتها ذهابًا وإيابًا، تتبعت النوارس، وحالفني الحظ في أن أجلس في مطعم صغير في الفضاء الضيق أمام البحر لأجلس بهدوء أتأمل حكاية مدينة لم تكتب بعد.

أغنية للبحر

حينما أرى البحر بعد غياب طويل داخل أحشاء المدينة المكتظة بالزحام والبشر والتلوث والقسوة، أشعر بأنني أسقط أمام الحنين كطفلة فاجأها سيل جارف، تحضر طفولتي كلها دفعة واحدة، يظهر بيتنا من الغيب، ذلك البيت الذي كان يجاور البحر في الستينيات، وتسهر سطوحه طيلة الليل تستمع لوشوشات القمر وأصداف الشاطئ، حين ألمح بقايا أصداف وقواقع على الشاطئ.. ألمح بحارًا وليس بحرًا يتدفق من داخلي غامرًا كل شيء، أشعر بأنني أتنزه على ضفاف محيط، وألعب بكل القوارب التي صنعها الصيادون طيلة هذه القرون!

أمي حبيبة أخرى للبحر، حين تشتاق إليه في هذا العمر، في هذه المدن يملؤها البكاء، وتهرع إليه وفي يدها وقلبها عصا الأيام تلوح بها في وجهه، كما أم تهز العصا في وجه طفلها الجميل الذي حرمها نعمة الهدوء، وأورثها لعنة القلق عليه، فيا لعنة القلق متى تغادرين أرض القلب؟

متى سيشرق البحر في مدينتي كالنهار كل يوم كما كان؟ متى سيحق لأمي أن ترى بحرها كل يوم كما كانت تفعل يوم كان بيتنا يجاور البحر والأصداف ورمل الشاطئ وقوارب الصيادين؟

حينما أسمع صوت أبي من خلف الرحيل، أظن أنني أسمع صوت السماء، أبي كان رجلًا غريبًا، كان صامتًا على الدوام، حزينًا من غير حديث، وطيبًا كما لم يحدث أن كان رجل طيب في أي زمان، حين أشم الطيبة في أحد يحضر هو بكل بساطته.

وحين أطلب له الرحمة تنهمر الفراشات الملونة من بين أصابع يدي، كان بسيطًا كأحدنا، وكان صامتًا كجبل، ووحيدًا. رحل من دون أن أعرف سر حزنه وصمته، رحل من دون أن أسأله ما الذي يمكن أن يجعله سعيدًا ولو لمرة واحدة، رحل وأورثني حزنه الذاهب في داخلي بلا قرار، وبلا سبب!

حينما أزور جدتي، في سنها المتقدّمة هذه، أعرف شيئًا ضئيلًا من حكمة الخالق، أعرف أن امتداد العمر حتى مشارفة التسعين عبء تنوء به الجبال.. وجدتي هذه متناهية الوهن كقبضة ياسمين لا يمكنها احتمال هذا العمر، لكنها تبدو مبتسمة دائمًا - عكس والدي - فأهمس في داخلي: ألأنها أم؟ ألأنها امرأة عربية من زمن الشظف والفقر؟ ألأنها جدتي؟ ربما لأنها طيبة على الدوام، وربما لأنها كانت توزع الحلوى على الصغار دائمًا!

حين أصاب بدوار الشوق لمن أحب، أتذكر كل الذين رحلوا في عمري، أتذكر فيروز إذ تغني..... «كل الذين أحبهم سرقوا رقادي واستراحوا».. وأقول أيها الشوق اهدأ فليس لي سوى قلب، وقلبي ما عاد يحتمل مزيدًا من الشوق لراحلين جدد يصرون إذ يأتون من قلب الغيب فجأة أن يرحلوا إلى البعيد دون سابق موعد، وعبثًا أرشو الفراق بوعود لقاءات آتية، عبثًا يصدق القلب أمنيات اللقاء..

وأشعر حين يغلبني الشوق للصحب الذين رحلوا أنني أرحل داخل بئر.. لأخبئ العمر للآتي عله لا يرحل.

سيف الذي لا يعرف مدينته!

سيف فتى صغير في أول عمره، جميل ومجتهد ولديه حبيبة تلازمه دائمًا، فإذا جاءنا كانت بصحبته، وإذا تنقل في أي مكان تعلقت برقبته كطفل مشاغب، إنها الكاميرا التي يهوى التصوير بها وتعرف على الكثير من أسرارها، في إحدى زياراته لي أطلعني على بعض الصور التي التقطها، وقد أدرجها في صفحته الشخصية على الفيسبوك، قلت بيني وبين نفسي وأنا أراقبه يداعب أزرار الكمبيوتر بسرعة وخفة ناعمة ويريني الصور بحرفية عالية: يا الله كيف يكبر الصغار في غفلة منا؟!

كان سيف في خاطري لا يزال ذلك الطفل الصغير الذي يعبث بشغب يثير الأعصاب أحيانًا، كيف كبر بهذه السرعة، وبدأت ملامح الرجولة تجتاح وجهه، كيف عرف الطريق إلى الكاميرا وتمرس في دهاليز أسرار عدساتها وأبعادها، أين كنت عندما كان سيف يكبر ويختار هوايته ودراسته ومستقبله، ماذا ستدرس إذا أنهيت الثانوية؟ سألته كمن يمرر سؤالًا روتينيًّا نلقيه على أطفالنا وكأنه أمر مفروغ منه لا بد للكبار أن يقوموا به إذا صادفوا طفلًا في أي مكان، أجابني إن لم أتمكن من دخول كلية الطيران فسوف أسعى لأكون محاميًا!!

بهذا الوضوح يتحرك هؤلاء الصغار دون حاجة لآرائنا النيرة أو نصائحنا وثرثرتنا التي نتباهى بامتلاك ناصيتها غرورًا بفارق السنوات التي ندعي بأنها راكمت لدينا خبرة لا بد من استثمارها في عقول وأجساد هؤلاء الذين تعبوا لكثرة ما حاولوا إفهامنا بأن بإمكانهم أن يكونوا أفضل منا بكثير، وأن كل ما يحتاجونه منا أن ندلهم على الطرقات البعيدة التي لا يعرفونها، ولم تسمح لهم تبدلات المدينة وانشغالات الكبار بالاستدلال عليها.

سألته: هل ذهبت إلى سوق السمك في ديرة فجرًا؟ هل مشيت في سوق الذهب؟ هل تعرف تفاصيل سوق الأدوية الشعبية في منطقة الرأس بديرة؟ هل تعلم أنك إذا وقفت على رصيف محطة العبرة في الضفة الأخرى من دبي تكون بإزاء عالم لا حدود له من التاريخ والبشر وجدلية اللون والضوء والحركة مساء وفي عز الظهيرة؟ هل مشيت على جبال رأس الخيمة ووديان الفجيرة وتسكعت في دروب المنطقة الشرقية؟ كان يجيبني على كل سؤال الإجابة نفسها: لا!!

كانت المدارس تقوم بمهمة تعريف الطلاب على معالم المدينة الحديثة: المركز التجاري والميناء والمتحف و.... إلخ، وكان الطلاب يعرفون تمامًا تفاصيل مدينتهم كما يعرفون خطوط يدهم، فقد كنا نذرع هذه المدينة في كل مناسبة، لم تكن هناك بقعة لم نصلها، إلا فيما ندر، لكن اليوم اختلف الوضع فلا يمكن أن تظل المدرسة تسحب الطلاب إلى المركز التجاري والحديقة وهم يعيشون في المركز التجاري أكثر مما يقضون في المنزل ويعرفون الحديقة جيدًا، بينما لا تكلف المدارس نفسها عناء تنظيم زيارات حقيقية لمناطق وتفاصيل المدينة الحقيقية التي يفترض أن يرتبط بها هؤلاء الطلاب وينجدلوا معها وينغرسوا في عمقها ويعرفوها ويحبوها كما يجب وكما نطالبهم كل لحظة.

كيف يمكن أن يحب هؤلاء مدينتهم إذا كانوا لا يعرفونها، إذا لم يمشوا في كل حواريها وأزقتها؟ إذا لم يشموا رائحة البحر والسمك وديزل العبارات، ورمال الصحراء وبساتين النخيل وأشجار الليمون.

كيف يمكن لسيف أن يعرف مدينته إذا كان لا يعرف شيئًا عن أسماء أحيائها القديمة وأزقتها التي التهمها العمران والأسفلت والزجاج؟ سيف لا يعرف سوى الحي الذي يسكنه والمنطقة الجميلة التي تقع فيها مدرسته النموذجية، والأحياء الراقية حيث يسكن أصدقاؤه، وهو يعرف جيدًا أسماء كل المراكز التجارية واحدًا واحدًا، وأين يقع كل مركز، وربما يعرف بطريق الصدفة البحتة أسماء الفلبينيات اللواتي يبعن في محلاته، سيف يعرف أشياء كثيرة عن دور السينما وآخر الأفلام التي تعرض فيها، والمتاجر التي افتتحت مؤخرًا في المركز المجاور، كما يعرف على وجه الدقة أسماء الماركات التجارية التي تبيعها.

سيف ولد ذكي جدًّا يعرف الإنترنت جيدًا، والبلاكبيري والفيسبوك والتويتر، وقد سافر لوحده ذات يوم وتحمل مسؤولية حريته بشكل مدهش، لكن سيف لم يغادر ثقافة المول والإنترنت، لم يتعرف بشكل سلس إلى ثقافة الفريج الشعبي، لم يلعب الكرة في الساحة الرملية ولم يصطد الطيور، ولم يركض خلفها على الشاطئ الواسع، ولم تتسخ قدماه بالقار الأسود، لم يسبح في البحر الكبير، ولم يلوح للمراكب البعيدة الراسية على حدود الأفق كعلب الكبريت، لم يعلمه أبوه ولا معلموه ولا كتاب اشتراه بالصدفة أي شيء عن أسماء الطيور والأسماك والمناطق والفرجان والعائلات التي سكنت هنا منذ أزمنة بعيدة وشكلت ذاكرة المدينة!

لم تنظم المدرسة له ولرفاقه رحلات تعريفية سليمة للأسواق القديمة كسوق السمك وسوق الأدوية الشعبية، ولقرى الصيادين والمزارعين هناك في مناطق الساحل الشرقي، ولم يتعرف على القنص والمقناص وطريقة التعامل مع الصقور أليست هذه واحدة من أهم رياضات أهل بلده؟ وواحدة من أعرق التفاصيل التي نتباهى بها؟

لدينا رجال اشتهروا بأنهم أفضل من بنى السفن الخشبية في منطقة الخليج وقد زارتهم محطات تلفزيونية أجنبية لا حصر لها ودونت سيرتهم وإنجازاتهم وحفظتها ضمن أفلام ثقافية شديدة الأهمية، وهم يتسربون إلى الموت واحدًا تلو الآخر دون أن يفكر معلم واحد في أخذ هؤلاء الصغار ليسمعوا حديث هؤلاء ويعرفوا منهم أسرار الخشب والسفن والبحر والرجال، ألسنا أهل البحر والغوص والترحال منذ أول التاريخ؟ فماذا يعرف سيف وكل جيله عن تاريخ البحر والغوص والعناء سوى هذه الجمل الجاهزة كـ «ساندويتش» بارد؟

سيف أيها الصبي الجميل والذكي ويا كل رفاق سيف نحن نعترف بأننا مقصرون في حقكم، فبقدر ما نتهمكم بأنكم منفصلون عن تراثكم ومغتربون عن هويتكم ولغتكم وبقدر ما نتهكم عليكم ونسميكم بـ «جيل الهامبرجر» والإنترنت والبيتزا، بقدر ما يتوجب علينا أن نعتذر إليكم لأننا لم نعلمكم أبجديات الوطن والهوية والتراث كما يجب؛ لأن الوطن ليس عنوانًا في كتاب ولا موضوعًا إجباريًّا في

امتحان اللغة العربية آخر العام، والهوية ليست كلامًا مرسلًا نمضغه كعلكة خالية من السكر، والتراث نعيشه ونمارسه ونتغلغل فيه قبل أن نحوله إلى رقصة ومسابقة تلفزيونية.

أحسست وأنا أتحدث إلى سيف بكمّ هائل من الادعاء نمارسه جميعًا ونحن نثرثر صباح مساء وبحرقة ظاهرة على الهوية والبلد، بينما أبناؤنا لا يعرفون شيئًا عن تفاصيل مدينتهم التي «يسكنونها» كما يبدو، بينما يتوجب أن يتغلغلوا في شرايينها كي يعرفوها ويحبوها وينتموا إليها.

ومريم التي تغتسل بالمطر والحكايات

نحتاج لأن نرصد وجوه الناس وتفاصيلهم، الرجال والنساء، الكبار منهم على وجه التحديد، لنحتفظ قدر الإمكان بهوية المدينة وتاريخها، فمن خلال هذا الرصد، نتعرف على تفاصيلنا، رائحة الناس، شكل أياديهم لون كلماتهم وعيونهم، إشاراتهم ومعانيهم، من لحظة أن يرحبوا بك فيلونون الفضاء الفاصل بينك وبينهم بكل قاموس الترحاب والأهلًا وسهلًا، إلى أن يفتحوا أمامك كل أدراج الكلام والحكايات فيسقطونك في عمق الصحراء وبساطة كل الناس هنا!

«مريم» واحدة من هؤلاء الناس، تشعر بأنها تضعك في عمق قلبها لمجرد أن تراك مطلًّا عليها، وإذ تجلس تجعلك بقربها لتسكب في روحك من خفة روحها وبهجتها ما يغير مزاجك إلى البهجة الكاملة، تقول لك أخبار المدينة وأخبار الناس، وماذا قال أبو عمر في البث المباشر وأبو راشد في إذاعة عجمان، تعرف حكايات تقاعد الشباب، تعرف الفرق بين الشغالات الإثيوبيات والفلبينيات، وإن كانت تفضلها سيلانية، وتضحكك بقصص المشاجرات التي تشتعل بينهن، لا فرق بينها وبين أي سيدة سبعينية، لكن لديها ظرفًا فائقًا وقدرة على التأثير وسعة صدر تمنحها حالة من الأمومة الدافئة التي يفتقدها كثيرون ممن فقدوا أمهاتهم وجدّاتهم، حينما دخلت عليها مساء الأمس كان الفرح يلون تقاسيم وجهها الصغير، وكان صوتها مزيجًا بين الحمد والشكر والغناء. سألتها عن سر الفرح؟ أجابت إنه المطر!!

لا شك عندي أن الناس في هذا المجتمع بسطاء بالفطرة، طيبون بالمزاج، كرماء بالطبيعة، ومتدينون بالوراثة والجينات، يفرحون بالمطر كما الأطفال كبارهم قبل صغارهم، وقد يذرفون دموع البهجة والخشوع ويخرّون لله سجدًا لأنه منحهم قطرات مطر كادوا ييأسون من هطولها ذات شتاء، هؤلاء الذين يبنون الأبراج ويعبرون الفضاء بطائرات الكونكورد ويسكنون فنادق الخمس نجوم إذا سافروا عواصم الشرق والغرب، يتخرج أبناؤهم في جامعات كامبردج وهارفارد وييل ويشترون ثيابهم من أرقى دكاكين الموضة في ميلان وباريس. هؤلاء يشدني إلى قلوبهم نقاء لا يزال يمنحها بساطة الأيام القديمة الصعبة، ويستوقفني أنهم بعد كل ما سلف لا يزالون ينتظرون المطر كبدوي ستموت نعاجه جوعًا إذا لم ينبت العشب على مفاصل الصحراء شتاء.

تساءلت لماذا تضج المدينة بالبهجة إذا هطلت الأمطار فجأة على غير عادة كل الناس في كل الدنيا، فإما تجدهم حانقين على هذا المطر الذي لخبط برنامجهم اليومي، وإما أنهم مستاؤون لما يسببه من أوحال وصعوبة في التحرك والتنقل، بينما الناس عندنا يتهادون التحايا والتبريكات ويسمونه الرحمة، وما من يوم يسقط فيه المطر إلا وتأتيك رسالة تقول لك مبروك عليك الرحمة.. لماذا هذا الاحتفاء بالمطر والناس لا يزرعون ولا يرعون ولا يشربون منه؟

ببساطة لأن الناس لا يزالون مرتبطين بالسماء وبالغيب أكثر مما نتصور، ولأن المطر يشكل حالة وجدانية لديهم، ولأن أهل الصحراء عادة يحبون المطر بشكل مختلف، وحين يهطل يتنفسون

الصعداء، ويشعرون بالراحة، ويفرحون كما كانوا في طفولتهم، يعيدهم المطر لرقصاتهم وصراخهم في أفنية الدور والشوارع، يعيدهم إلى حقيقتهم البسيطة.

نسافر.. لنقترب أكثر!

ذات يوم بعيد، وقد كنت عديمة الخبرة في مسائل الصراعات وحروب الغيرة بين الزملاء وجدتني أتخذ قرار الرحيل، بعد أن امتلأت بالغضب والشعور بالظلم، قلت أترك كل شيء وأهرب إلى حيث لا صراعات ولا معارك وطعنات لا تدري من أين تأتيك وبيد من؟ كنت صغيرة وذات تجربة متواضعة في الحياة، لم أكن قد توصلت بعد لكل هذه القناعات الواضحة والفجة أيضًا والصلبة التي تملأ قلبي اليوم حول قسوة الدنيا، لم أكن أملك يومها سوى الهروب من المؤسسة، كنا كثيرين نظن أن المؤسسات حلبات صراع بائسة مصنوعة للفاشلين فقط، والمتسلقين وعديمي المؤهلات الحقيقية، وأن كل زميل لك أو كل مدير يعبر أمامك يمكن ببساطة أن يقرر تحويل حياتك إلى جحيم إذا لم ترق له أو إذا لم تكن من ضمن فريقه، ولم يكن هناك من ثقافة مقابلة تعيد التوازن لهذه النظرة القاتمة عن المؤسسة والزملاء والمدراء، يومها خرج من خرج من زملائنا، و«طفش من طفش»، وبقي من بقي، لكن الذكريات لم تكن بذاك المستوى من الدفء والرومانسية على أية حال!!

حين غادرت مدينتي إلى بريطانيا، كنت كشجرة سدر أو غاف صحراوية أرادت أن تزرع نفسها في مناخ البلدان البعيدة، الباردة، أعجبني كل شيء، النظام، الاخضرار، دأب الناس، النشاط، المناخ المعتدل، مزاج الناس الذي يميل دائمًا للهدوء، والسيارات التي تسير دون ضجيج ودون ارتكاب حوادث غالبًا، وصرت كلما تحدثت عنهم أقول كطفلة جاءت للتو من السيرك: «يا إلهي طوال إقامتي هناك لم أر حادثًا واحدًا على الطريق» سألني أخي يومًا: يعني ذلك أن الناس
لا يموتون هناك؟ قلت له: نعم هم لا يموتون على الطريق العام بهذه العلنية البشعة، لكنهم يموتون وحدهم في بيوت تظل مغلقة طويلًا. الموت وحيدًا في بيتك أمر لا يقل بشاعة عن الموت العلني على الطريق العام!!

حين استقر بي الحال هناك، بدأت أحن إلى بيتنا أولًا، إلى نظافة أمي المبالغ فيها، إلى كل شيء، علمت ساعتها أن الحنين ليس شعورًا إنسانيًّا عابرًا، وليس حالة وجدانية مفاجئة، إنه ميزة شرقية تصل أحيانًا لتكون شيئًا يشبه فصيلة الدم أو خريطة الروح الجينية، نحن شعوب مسكونون بالوجع، بالحنين، نمشي على قلوبنا أكثر مما نسير على أقدامنا لذلك يلفتنا كل شيء ونتوجع لكل الناس، الفقراء، الأطفال، العمال، الذين يحبوننا والذين لا يأبهون لنا، نحن شعوب مسكونون بالخير حتمًا، هكذا كنت وما زلت أومن!

حين مشيت في الجامعة، وجلست في فصول الماجستير وعرضت مشروع الرسالة التي كنت أود القيام بها، وكانت عن الحصار الاقتصادي الدولي على العراق بداية سنوات الألفية الثالثة، لم أجد حماسًا شديدًا من قبل المشرف، عرض عليّ بديلًا لهذا الموضوع أن أبحث في إحدى إشكاليات الاتحاد الأوروبي أو دول أوروبا الشرقية، قلت له لا يعنيني هذا الأمر، قال: العلم
لا علاقة له بالتوجهات الشخصية، قلت له: وأنا لا يعنيني أن أبقى في هذه الجامعة، وفي اليوم التالي جمعت أوراقي وأوقفت دراستي في جامعة كاردف ببريطانيا.

حينما عدت، قلت لأصحابي كلهم: في أوطاننا علينا أن نحتمل كل شيء، فكل شيء هنا رائع، لو تعلمون كم يعانون هناك، إن النظام والجمال والترتيب والبيوت الجميلة نحن من نصنعها، فلا تستحق أن نهجر أوطاننا لأجل أشياء نستطيع أن نفعلها، أما التحديات فلا تحل بالهروب بل بالمواجهة، أيقنت أن الصراع هو الأصل في مسيرة الإنسانية وأن التاريخ تأسس بالصراع وليس بالسلام في أغلب مراحله.

الحياة مع عجوز إنجليزية

في الفترة التي قررت فيها إكمال دراستي العليا لنيل الماجستير والدكتوراه قضيت الأشهر الأولى في مدينة كامبردج، حيث مدرسة اللغة وهناك تقرر أن أعيش مع عجوز بريطانية تجاوزت الخامسة والسبعين من عمرها، قيل لي قبل أن أذهب للعيش معها إنها تعيش مع ابنها غير المتزوج والذي يقضي اليوم بطوله في العمل ويعود متأخرًا، وأنها تقضي الوقت في ممارسة هواية البستنة مع شجيراتها ونباتاتها، وصلت إلى منزلها بعد الظهر قادمة من لندن عبر رحلة طويلة من دبي، فتنت في البداية بهدوء الحي وبأشكال البيوت ذات الأسقف القرميدية والحدائق الصغيرة المرتبة أمام المنازل وبصندوق البريد التقليدي المثبت أمام الباب الصغير، أحسست للوهلة الأولى أنني أشاهد فيلم رسوم متحركة، استقبلتني بترحاب حذر، ثم سألتني فيما إذا كنت هندية؟ تساءلت: لماذا هذا السؤال؟ فقالت: أنت سمراء مثلهم. علمت لاحقًا أنها لم تزر سوى الهند في سنوات شبابها الباكر!

في بيت العجوز البريطانية كنت أكتشف كل يوم أمرًا مهمًّا في حياة تلك السيدة يجعلها تختلف عن عجائزنا في تقبلها للحياة وعدم تبرمها من كل شيء، رغم سنواتها الكثيرة.

حين ذهبت إلى مدينة كامبردج الجميلة أحمل عنوان بيت السيدة شيللا وبعد أن أريته لسائق السيارة الذي أقلني من لندن، وحينما وقفت بي السيارة أمام منزلها وضغطت على جرس الباب اعتقدت بأنني سأقابل سيدة تجر نفسها جرًّا أو تتحرك على كرسي متحرك، لكن الباب انفتح على مفاجأة غير متوقعة بالنسبة إليّ.

كنت أعلم أنني سأسكن في منزل سيدة عجوز أعطوني كل مواصفاتها وطباعها، لكن العجوز التي فتحت لي الباب لا تبدو في الخامسة والسبعين أبدًا، فقد أدخلتني واستأذنت لأنها كانت في طريقها إلى السوبر ماركت، تبعتها إلى الخارج فإذا بها تخرج دراجة هوائية كانت تضعها في مكان ما فتحت القفل، ثم ركبتها برشاقة وانطلقت كصبية في الخامسة عشرة لا أكثر!!

في اليوم التالي كان عليّ أن ألتحق مباشرة بمدرسة اللغة الإنجليزية، وكان يتوجب عليها أن تشرح لي كيفية استخدام الحافلة والمحطات التي عليّ المرور بها ومتى يتوجب عليّ قرع الجرس ليوقف السائق الحافلة، وبدلًا من أن توصلني بسيارة أجرة كما هو متفق عليه في اليوم الأول على الأقل أو تمنحني أجرة التاكسي وتطلبه لي بالهاتف، عرضت عليّ أن أركب خلفها على دراجتها لأنها ستوصلني بنفسها للمدرسة!!

فاعتذرت بلباقة وأخبرتها أن لدي خوفًا شديدًا من ركوب الدراجات، وأنني أفضل أن أصل مشيًا على قدمي إذا لم يكن بحوزتها نقود هذا اليوم فالطقس جميل، وهو بالتأكيد أجمل من منظري وأنا أركب دراجة هوائية خلف عجوز بريطانية بخيلة!

فيما بعد تعرفت إليها جيدًا فأسرّت لي بأنها حينما رأتني للوهلة الأولى اعتقدت بأنني هندية فهي لا تعرف من الشرق سوى الهند على ما يبدو، فهذا آخر ما درسته في مادة الجغرافيا وتاريخ التاج البريطاني، المهم أنها لم تكن لطيفة بما يكفي لتخفف عني كآبة الغربة والوحدة وقسوة بريطانيا التي لم أتمكن من استلطافها يومًا فعدت دون أن أكمل دراستي ليس بسبب شيللا، ولكن لعدم قدرتي على التأقلم مع الغربة!

لم أجد هذه العجوز رغم وحدتها تشكو يومًا من شيء ما، لا من أولادها الذين لا يزورونها باستمرار كما تفعل كل الأمهات عندنا، ولا من الحكومة التي لا توفر لها العلاج ومساعدات الشؤون الاجتماعية ولا من مشاكل هشاشة العظام أو مواعيد فحص الضغط والسكر والكولسترول، لم تشتك يومًا لأن جيرانها لا يزورونها، ولم تتحدث على الهاتف أكثر من عشر دقائق في أي يوم، تعد لي ولنفسها كل يوم ودون كلل طعام الإفطار (بيضة مسلوقة وخبز محمص وإناء يحوي قليلًا من رقائق الذرة مع كأس حليب) ووجبة الغداء تتكرر كل يوم (سمك وبطاطا مقلية)، ثم عليّ أن أتدبر عشائي أو أبيت بلا عشاء إذا صادف يوم أحد، وكانت المحلات القريبة من بيت العجوز مغلقة!

تنبش صحف التابلويد الصفراء صفحة صفحة، تتأمل صور النساء العاريات ثم تقص كوبونات الخصومات المرفقة بتلك الصحف وتجمعها بترتيب فائق، ثم تدسها في أحد أدراج المطبخ، في المساء تندمج في متابعة المسلسلات الإنجليزية السمجة، وتظل مسترخية في أريكتها طيلة الوقت حتى يحين موعد نومها، لا تحب الحيوانات الأليفة كالقطط والكلاب على غير عادة الإنجليز، تهتم بحديقتها الصغيرة في فنائها الخلفي، تعنى بالزهور وتعتبر نفسها من عشاق زهرة الأوركيد كانت تذهب إلى كل معارض الزهور التي تقام في المدينة لاقتناء زهرة جديدة أو كتاب يتحدث عن هذه الزهرة الرائعة.

حياتها العائلية تسير في خط مستقيم لم يختل يومًا، فيوم السبت يأتيها ابنها الكبير مع ولديه اللذين يملآن البيت لعبًا وضجيجًا حتى العصر، ويوم الأحد تأتيها ابنتها باكرًا لتقضي معها طيلة النهار. ما عدا ذلك، فإن بقية الأسبوع تقضيه العجوز وحدها تتدبر أمورها ببساطة وهدوء لا تنتظر زوارًا ولا مفاجآت من أي نوع، ونادرًا ما كنت أتبادل الحديث معها، فأنا أعود متأخرة ومنهكة وعليّ إعداد الكثير من الواجبات لليوم التالي، أكثر ما كان يزعجني هو كمية الغبار الذي كان يتطاير في فضاء الغرفة التي خصصتها لي، لم أستخدم أي شيء مما سلمته لي، ذهبت في اليوم التالي واشتريت كل ما يمكن أن أحتاج إليه، اجتهدت لتنظيف الغرفة التي يبدو أن يدًا لم تزل حبة غبار واحدة منها منذ سنوات، لا أدري لماذا كان هذا الإهمال يسبب لي حزنًا ويدفعني للبكاء، أتذكر عناية أمي ونظافتها وألوم نفسي ربما أن تركت ذلك الحنان الباذخ وأتيت لبيت في آخر الدنيا لأعيش مع هذه العجوز غريبة الأطوار!

تحت سماوات أخرى

(1) تحت سماء القاهرة

في ربيع مضى منذ سنوات طويلة، كنت في القاهرة أحضر مؤتمرًا لقضايا المرأة، وكنت أذهب للقاهرة للمرة الأولى، أتذكر أننا وبعد جلسات طالت وامتدت ثلاثة أيام، قررنا كمجموعة صديقات وأصدقاء أن نهرب من جو المؤتمر والنقاشات إلى ليل القاهرة البهيج، فاخترنا حي الحسين، وكان دليلنا في المشوار زميلًا صحفيًّا من القاهرة كان يعمل معنا في صحيفة البيان، وإذ دخلنا المكان تفاجأت بشكل لا يصدق، غمرتني الألفة والبهجة معًا، كانت زيارتي الأولى لكنني كنت أمشي في المكان كمن يأتي إليه للمرة الألف، فاجأني زخم البشر، والأضواء، والضجيج، وكل التفاصيل المحيطة بمسجد الحسين وحالته الوجدانية الخاصة، هالة الغموض، والقداسة التي تلفه، أما أولئك الآتون من أصقاع المحروسة لزيارة الحسين للتبرك وطلب الشفاعة، فقد افترشوا الفضاء انتظارًا لصلاة الفجر، فساعتها ستفتح البوابات ويتمكنون من الدخول، أما خارج أوقات الصلاة فالبوابات مغلقة!!

في حي الحسين كانت قهوة الفيشاوي التي اعتاد أن يجلس فيها أدباء مصر ومشاهيرها أيام زمان، كان المقهى بسيطًا جدًّا أكثر مما يمكن أن نتصور، وخاليًا من أي ملمح من ملامح الفخامة، مع ذلك فأنت تشعر بروح حلوة تجتاحك وأنت تجلس في هذا المقهى، أنت القادم من بلدان الحداثة والمباني العملاقة والبراقة، هذه الروح التي لها علاقة بتفاعلك مع المكان، بعلاقتك بتاريخه وبحبك له بسبب هذا التاريخ، فأنت لا تحب أو تتفاعل مع خشب الطاولات أو رائحة البن العبقة، إنك تتفاعل مع روح القاهرة القديمة، مع تاريخ يمتد إلى مئات السنين، تشعر وكأنك ترى قوافل الفاتحين والخلفاء والمماليك وجيوش قُطز القادمة من انتصار عين جالوت، كما تسمع في المكان نفسه أصوات الشعراء والملوك الذين جلسوا على عرش مصر، ومظاهرات الطلاب والثائرين التي اجتاحت القاهرة، لقد ذهب كل المحتلين وكل الجبناء وبقيت القاهرة وبقيت مصر لتؤكد معجزة كرامتها وخلودها.

تركت الجماعة غارقين في بهجتهم وفناجين الشاي المصري الثقيل، وقمت أتمشى على مهل في المكان، وجدتني فجأة في مواجهة مشاجرة بين امرأة شابة ثلاثينية، ذات قوام ممشوق وبشرة سمراء تبيع الصحف المسائية، وبين شاب كان قد ضربها، وبين الاثنين يقف نادل مقهى شاب ذو ملامح مصرية قريبة إلى القلب، يحاول أن يفك الاشتباك الحاصل بين المرأة والرجل الذي ضربها وهو يحاول إكمال وصلة الضرب على ما يبدو، كل الذي سمعته بوضوح تلك الجملة التي حاول من خلالها النادل إقناع المرأة بسبب ضرب الرجل لها «هو ضربك عشان بيحبك»!! فأي حب هذا الذي يتوجب على المرأة أن تكون ممتنة له في حياتها مقابل الضرب العلني أمام الملأ؟

ذهبت باتجاه المسجد المنبثق في الحي بهيبة ووقار، نظرت إلى النائمين والجالسين الذين ينتظرون صلاة الفجر للدخول إلى فناء مسجد الحسين، بعضهم التحف بثيابه، وبعضهم بقطع الكرتون؛ فقراء،

فلاحون وفلاحات معدمات جاؤوا للصلاة وللدعاء والوفاء بنذر أو أشياء مشابهة، تذكرت أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بعيدًا عن خيط أمل يربطه بالسماء، الإنسان كيفما كان وحيثما كان.

في رواية «سرمدة» كان أستاذ الجغرافيا لا يؤمن بكلام العرافة في القرية، وكان يردد دومًا «كلما أجدبت الأرض ازدهرت السماء»، هكذا هو الأمر كلما انقطعت صلة الإنسان بالخالق استجدى المخلوقين، ولذلك فإن الجهل والفقر هما السببان الرئيسيان لانتشار التبرك بالأولياء ورمي أحمال القهر على عتباتهم المقدسة.

لكن مع ذلك، فإن التبرك بالأولياء شيء وطلب مدد السماء شيء آخر، فحتى حين يسكن إنسان اليوم أكبر ناطحات السحاب ويتعامل مع أكثر الأجهزة الإلكترونية تعقيدًا ويسافر بطائرات الكونكورد، فإنه يظل محتاجًا أبدًا إلى هذا المدد، حين حلقت بنا الطائرة عائدة إلى الإمارات، بقي شيء مني في القاهرة، وظلت رغبة العودة تلازمني طويلًا.

القاهرة بعد فراق:

وبعد سنوات كثيرة، طالت أكثر مما ينبغي بعد ذلك اللقاء، أجدني في القاهرة مجددًا وقد فاتني الكثير من أحداثها الجسيمة ومشاهدها التي اكتفيت بمتابعتها تلفزيونيًّا، أحداث غيرت العالم وهزت وجدان المواطن العربي وخلخلت خريطة الوطن، أحداث تمنيت وأنا أتابعها أن أكون في قلبها، قريبة منها فليس أعظم
ولا أهم من أن تشهد تاريخًا يتأسس أمام ناظريك، بغض النظر أعجبك ذلك الذي يحدث أم أغضبك، حيث يتأسس التاريخ، ويتكون وفق فكرة الدورة التاريخية الحتمية التي لا تلتفت كثيرًا لأوجاعنا أو مسراتنا، اليوم والسيارة تقطع بي شوارع القاهرة المزدحمة تتوالى على مخيلتي صور أربع سنوات من المعاناة، والتحدي والتعب، والعنف، وحوادث القتل والتدمير، والمسيرات وصناديق الاقتراع، وقصص الصراعات السياسية والمالية والفساد والمفسدين وحراس الفساد. أقرأ لافتة يشير سهم لليمين في أعلاها إلى ميدان التحرير، فأتذكر ذلك الهدير، وتلك الأيام التي لا تنسى، أيام غيرت حياة مصر والمصريين حد التعب الذي لا يبقي ولا يذر. أنا في القاهرة للمرة الثالثة بعد سنوات طويلة، بينما لم تزل ذكرى الزيارة الأولى لها في العام 2000 تعبق في ذاكرتي. اليوم نحن في منتصف شهر نوفمبر، وفي منتصف المسافة بين الاستقرار والفوضى، بين الخوف والأمان، بين الثورة والتخريب، مصر في عين العاصفة، مستهدفة وقلقة، والجميع قلق لأجلها، في هذا الظرف الصعب كذلك أجدني في قلب القاهرة ضمن وفد إعلامي يضم عددًا من الكتاب والصحفيين والإعلاميين الإماراتيين، بجدول عمل مزدحم ووقت قصير جدًّا، فخلال يومين لا أكثر علينا أن نقابل السيد رئيس الجمهورية
عبد الفتاح السيسي، ونحضر احتفالًا خاصًّا أعدته هيئة قناة السويس على شرف الوفد وعليه فلا بد من التوجه إلى مدينة السويس، والعودة في نفس اليوم، لحضور حفل عشاء على شرف الإعلاميين المصريين بتشريف السيد رئيس الوزراء، وفي اليوم التالي علينا أن نعود إلى أرض الوطن.

التقينا السيد الرئيس ودار بيننا وبينه حوار طويل حول المخاطر والتحديات التي تحيط بالأمة العربية ومصر وبالتعاون البناء بين مصر والإمارات، والمشاريع التي تنفذها الإمارات لصالح مصر ورفاه شعبها، وجدنا الرئيس رجلًا دمثًا متواضعًا وشديد الإخلاص لمصر ولديه رؤية واضحة وإصرار على العبور بمصر إلى بر الأمان. نحن معكم يا شعب مصر على طول الخط في مواجهة الإرهاب والتدمير والعبث الذي يستهدف مصر: هذا هو عنوان الزيارة وهدفها في حقيقة الأمر. فمنذ كان الوطن العربي كانت مصر قلبه وروحه وبوصلته، ونعلم أن مصر تتقاذفها تحديات ومؤامرات لا يستهان بخطورتها، لكننا نعلم أيضًا أنها على قدر التحدي وبحجم الآمال المعقودة عليها، فقبل مخاطر اليوم واجهت مصر ما لا يحصى من المخاطر، اجتازتها بخزان من الصبر والجلد، نفضت يديها كثيرًا، وجلست تحت قبة سمائها الصافية تستمتع بخلودها الذي لا يضاهى، وبخلود نيلها العظيم.

مصر دولة محورية في إقليم عربي يموج بفوضى عارمة، هذه الفوضى يؤمن القائمون عليها والمتأملون منها خدمة أمن ومصالح إسرائيل أنها لن تحقق نتائجها ما لم تعبر على جسد مصر الدولة، مصر الحائط الأقوى الذي يحمي الأمة، وهذا هو بالضبط ما يجب علينا أن نمنع حدوثه إذا كانت لدينا ذرة وعي واحدة بمدى فداحته وخطورته، هذا هو المستحيل الذي لن يحدث وهو الفكرة الواضحة والأساسية التي تنطلق منها قيادة مصر اليوم، في مواجهتها لطوفان المؤامرات ضدها من الشرق ومن الغرب، بينما العرب عاجزون عن صناعة نصر صغير كل على أرضه، فالكل يتخبط والجميع مهددون ومتحاربون ومتناحرون عرب ضد عرب، سنة ضد شيعة، مسيحيون في مواجهة مسلمين.. وهكذا كأنهم مؤمنون بأن الهزيمة قدرهم المقدور. ومع ذلك، فقدر مصر أن تقاوم وأن تتحمل، وقدرنا أن نكون معها، ليس اختيارًا بل التزامًا ولزامًا وواجبًا مستحقًّا!

القاهرة.. التاريخ الحاضر أبدًا

ها قد مضت سنتان على آخر زيارة لي للقاهرة، وها أنا أعود إليها، هذه المدينة المعجونة بفسيفساء حضارية نادرًا ما توجد أو تكون. المآذن والقصور، المزارات والقلاع، الحاكم محمد علي باشا والولي صاحب المقام والحضرة سيدنا الحسين بن علي، ملك الرواية نجيب محفوظ وملك مصر القديم رمسيس الثاني، كليوباترا الفاتنة والسيدة زينب الأسطورية، القلعة ذات التاريخ المخيف والمتحف المصري حافظ أسرار التاريخ الفرعوني.. وحدها مصر جمعت كل أطياف الحضارة والميثولوجيا والسياسة والدين بسلام وأمان طيلة قرون وقرون دون حروب أهلية أو صراعات طائفية!

مصر التي يبتسم لك إنسانها في أحلك ظروفه ويساعدك بكل خفة روح وأريحية، ابن البلد الجدع، مصر النيل العظيم والشمس الدافئة في عز الشتاء، البلاد التي أسست حضارة جمعت الدين وأساطير الخلود وآلهة الموت ومعابد التحنيط، قبل أن يعرف أي من البشر كل هذه المنظومة شديدة التغلغل في الذهنية المصرية والمعاصرة!

وأنا أتنقل في أرجاء المتحف المصري هالني التنوع والحجم المهول لمفردات الحضارة الفرعونية، هالتني دقة الصنعة والزخرفة وتوظيف الموارد المتاحة في إنتاج التماثيل والمجسمات والأدوات صغيرها وكبيرها، الزينة بكل بساطتها وفخامتها، الأثاث، المقابر والتوابيت، حضارة زاخرة بكل شيء بدءًا بخدم الفرعون وانتهاء بكهنته، أما الحضور الطاغي للثقافة الدينية بكل تجلياتها ورموزها فحدّث ولا حرج!

لم تكن هناك إلا أشياء نادرة لما له علاقة بالحياة الدنيوية، وكأن ما سيطر عليهم كان حياة ما بعد البعث أكثر من الحياة التي عاشوها برغم كل ما خلّفوه وراءهم!

لقد بُنيت الأهرامات الهائلة لتكون مقابر للملوك، وقامت حضارة وادي الملوك لتمجيد المعابد، أما أبو الهول فليس سوى رمز ديني يتكرر في كل العصور الفرعونية.

حضارة مصر القديمة هي الحضارة التي تفردت بأن صنعت لملوكها توابيت ومقابر أفخم وأعظم وأقوى مما بنته لهم من قصور، لذلك فليس غريبًا ولا عجيبًا هذا البعد الديني العميق في الشخصية المصرية، وهذا الإيمان بالدولة وسلطاتها، إن هذا المصري البسيط الذي يعبر شوارع القاهرة لا ينوء كاهله بأعباء حياة صعبة وقاهرة، بل أيضًا بعبء من التاريخ لا يحمله إلا إنسان عظيم.

لذا فلا شيء يعدل أو يعوض عن زيارة القاهرة، لا أن تقرأ عنها في روايات نجيب محفوظ، ولا أن تسمع لصوت الحب في أغنيات أم كلثوم وعبد الحليم حافظ، ولا أن تتابع الصحف والمجلات المصرية، ولا أن ترى كل ما أنتجته السينما المصرية من أفلام ونجمات ونجوم، بل ربما لكل هذه الأسباب عليك أن تزور القاهرة، وأن تمشي في أحيائها، وتزور متاحفها، وتتبع وقع الحياة ويوميات المدينة في الشوارع والمقاهي والمطاعم والأحياء التاريخية، وأن تعرف مزاج الإنسان هناك في جدالاته وهو يشتري ويبيع ويتعامل ويغضب ويقرأ خريطة أيامه وخريطة القاهرة!

الشخصية المصرية محددة الملامح وعميقة الأبعاد، ليس مهمًّا أن تتفق معها أو لا تتفق، تلك وجهة نظرك وأنت حر فيما ترى، لكن لا يمكنك إنكار سطوع هذه الشخصية وتمتعها بجملة سمات لا يمكنك إزاءها سوى أن تحب هذه الشخصية، ليس لخفة ظلها فقط، فالشخصية المصرية أعمق وأعقد من مجرد خفة ظل، وتعاطٍ ساخر مع أزمات الحياة، ونكتة تطلق بمنتهى سرعة البديهة، فالشخصية المصرية طبقات متراكمة من الوعي والتاريخ والحكمة.

إن رسوخ النكتة في الشخصية المصرية، وثقافة السخرية من الواقع بهذه السلاسة والاستمرارية ليست أمورا سهلة أو عابرة أبدًا، إن مواجهة تعقيدات الحياة بالسخرية هو شكل واعٍ من أشكال مقاومة البؤس، وتعاطٍ بالغ الذكاء وشديد الإيحاء بعمق البعد الديني في الحياة والذهنية المصرية!

إن أكثر ما كان يتابعه رئيس بحجم جمال عبد الناصر في سنوات الستينيات وتحديدًا بعد هزيمة 1967 فيما يخص المصريين، هو ما كانوا يبتكرونه وما كانوا يتداولونه من نكات، فهذه كانت

مؤشر الرضا والسخط على الحاكم، وفيها تكمن بذور المستقبل، إنها حيلة المصريين للانتصار على تحديات الحياة وعلى التعبير عن رفضهم لسياسات حكامهم.

لقد ظل المصريون، وعلى مدى عقود يحنون إلى حقبة الحكم الملكي،
وما زالوا يحنون، كنوع من «النوستالجيا» الأزلية التي تجتاح المواطن العربي كلما انكسر له حلم، رغبة في الخروج من عنق الزجاجة السياسي والاقتصادي، فعندما تسقط راية الحلم يذهب الجميع لصفحات الماضي رغم كل مآسيه وحرمانه علّ شيئًا يتغير ولو بفعل معجزة غير متوقعة.

حكاية من الإسكندرية:

قال عنها كارل ساغان مؤلف كتاب «الكون»: «إن هيباتيا هي آخر بريق لشعاع العلم من جامعة الإسكندرية القديمة».

وهيباتيا هي ابنة «ثيون» أستاذ الرياضيات في جامعة الإسكندرية القديمة، وآخر عظيم من عظمائها، سُجّل اسمها بلوحة الخالدين، وجاء (بدائرة المعارف البريطانية: إنها فيلسوفة مصرية وعالمة في الرياضيات)، كانت هيباتيا تلقي محاضراتها في جامعة الإسكندرية، وفاقت أهل زمانها من الفلاسفة والعلماء عندما عينت أستاذة للفلسفة بهذه الجامعة، وهرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس ومن شتى الأقطار النائية، وكان الطلاب يتزاحمون ويحتشدون أفواجًا إليها ومن كل مكان، ولقبت في الخطابات المرسلة لها بـ«الفيلسوفة»، وإذا قامت بشرح فلسفة أرسطو أو أفلاطون اكتظت القاعات برجالات وأثرياء الإسكندرية وأكابرها الذين كانوا يترددون على مجالسها ويحرصون عليها، خاصة وهى تعالج الكثير من المواضيع الشائكة وتثير الأسئلة المعقدة مثل: من أنا؟ ومن نكون؟ وما الخير؟ وما الشر؟

هذه الخلفية الصعبة لامرأة من ذلك الزمان السحيق، نافذة الجمال، باذخة الحضور، متوقدة العبقرية، ذات مكانة وحظوة، تتفوق حين يحضر الآخرون وتصير عملاق الجلسات حين يتقاطر الرجال، وتقول ما هو ممنوع وتدخل مناطق الالتباس المسكوت عنها في المجتمع المتخفي وراء الدين والمتسربل في مصالحه وعلاقاته، هذه المرأة وأية امرأة أخرى تحاول أن تعيد روح هيباتيا للوجود سينظر إليها دائمًا كما نظر لهيباتيا بأنها روح شريرة وثنية، ويجب أن تموت!!

هكذا حكم الكهنة على حضور هيباتيا وعبقريتها، لأنها امرأة أولًا ولأنها تحدت الرجال ثانيًا، ولأنها تفوقت عليهم في كل شيء، قالوا بأنها تنشر الفكر الوثني، وبأنها تحرف أفكار الناس، أما الرجل الذي هام بها عشقًا ورفضته فقد اشترك في دمها من حيث أراد أن يلعب دور البطل لكن خطته فشلت، فحين قرر أن يقنعها بالزواج ساعد في التأليب عليها كي يظهر بين الجموع المتكالبة لقتلها مقدمًا نفسه في صورة البطل المنقذ لكن حين انطلقت شرارة الفتنة ضدها كان من الصعب اللعب على التراجيديا والدخول على الخط بغباء عاشق انتهازي، فحاول لكنه قتل في خضم الجمع مستحقًا ميتته المشينة.

ففي أوائل شهر مارس سنة 415 للميلاد، أيام الصوم الكبير، والطريق مظلم أشد الظلام، وبالقرب من صحراء وادي النطرون كانت عربة يجرها حصانان رشيقان تنهب الأرض إلى غايتها وبداخلها الضحية، يلوح ضوء يوقف العربة وبضوء خافت يبدد الظلام يعترض العربة جمع من الرهبان المنتظرين على الطريق منذ فترة طويلة بملابس سوداء وقلوب أشد سوادًا، ليهجموا على العربة وبوحشية يفتحون بابها، ويجذبون امرأة بارعة الجمال، ساحرة الوجه من داخلها، يجرونها جرًّا ويذهبون بها إلى كنيسة قيصرون، حيث تقدمت مجموعة منهم قامت بنزع ثيابها لتصبح عارية تمامًا، ثم يتقدم أحد الرهبان ليقيدها وبسكين حاد وقلب بارد ويد لم ترتعش لحظة ذبحها كشاة، ولم يكتفوا، بل عكف الرهبان على مهمة بالغة الغرابة، وغير مسبوقة، بتقطيع الجسد إلى أشلاء مستمتعين ومنتشين بما يفعلون!!!

وفي شارع سينارون بالإسكندرية ذاك الزمان، أوقدوا نارًا متأججة وقذفوا بأعضاء جسدها، ذلك أنهم كمسيحيين متعصبين في ذلك الزمان رأوا في «هيباتيا» نواة البداية لفكر وثني خطير عبر ما تحمله من أفكار فلسفية، فكانت نهاية بشعة لامرأة ذات سيرة عظيمة بحق.

(2) لبنان.. كما لم أعرفه

زرت لبنان كما لم أزر أي بلد عربي آخر، أحببته كما أحبه كل العرب، ترددت عليه وجلت فيه كله من شماله إلى جنوبه، وصار لي فيه أصدقاء وأحبة، أحن إليهم ولا تنقطع صلتي بهم على طول الأيام وتبدل الأحوال، لبنان الذي عرفناه في السبعينيات لم يتبق منه شيء إلا الاسم والشهرة، وبنايات ما زالت تحمل ندوب اقتتال غبي طويل، وبقايا زعامات محنطة تتنفس هواء بارود البنادق التي ما زالت معلقة على جدران ذاكرة حرب مجنونة طحنت لبنان من أوله إلى آخره.

لبنان الثمانينيات ليس له وجود، فقد كان هدفًا للقناصة والميليشيات وطواحين الموت اليومية، وحينما لاحت سنوات التسعينيات لاح اتفاق الطائف كحل سحري ليس بالإمكان أبدع منه، ومع ذلك فقد كرهه مسيحيو لبنان حتى اليوم، لأنه سحب البساط من تحت قدمي زعيمهم المكلل منذ سنوات الحماية الفرنسية، ليكرس سلطة الحريري ومن تبعه فيما بعد من أهل السنة الذين ضاعفوا سلطاتهم، فإلى جانب حقهم الحصري في الرئاسة الثانية رئاسة الوزراء فقد أضافوا تحكمهم بمشاريع إعادة بناء العاصمة.

بيروت التي حولتها صفقات السياسة، وأحلام الشرق الأوسط الجديد، من عاصمة كل اللبنانيين إلى مدينة عادية تعبق بالتجار والمغامرين وأهل الثراء وبائعي الأوهام، بيروت الخارجة من دمار ست عشرة سنة، تحولت في سنوات الطفرة والعولمة وبداية الألفية الثالثة من كونها مكتبة العرب ومقهاهم الثقافي ودار نشرهم، وشرفتهم المطلة على الجمال والفن والحرية، إلى وسط تجاري ومقاه ومطاعم، ومربعات أمنية مريبة لزعماء من ورق.

بيروت اليوم ليست «ست الدنيا» كما عشقها نزار، ولبنان ليس هو الذي في الذاكرة كما غنته فيروز، تحول إلى سيدة ثرثارة تجادل بسبب وبلا سبب، إنه لبنان الذي لا نعرفه، لبنان الذي يغتال أبناءه تحت شمس الظهيرة وبقفازات سود تبيع الأسلحة تحت جنح المخيمات، وتؤوي الإرهابيين، وتصادر أمان المدينة بخزانات رصاص البنادق الكاتمة للصوت، لبنان الذي لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه، بعد أن اختفى صوت فيروز من على مدارج بعلبك وبيت الدين، وبعد أن صارت الخطب السياسية الجوفاء أكثر من إصدارات الكتب، وحفظ الناس أسماء مطربات الصف العاشر ونسوا أسماء القديسين والقديسات.

إذا استمعت لبعض القادة والزعماء اللبنانيين فإنك تسمع العجب العجاب، تقول الحمد لله أن هناك حكماء يعرفون الطريق لخلاص هذا البلد، ينسجون قماشة الواقع بعين العارف، ويصفون الحلول كما لا يمكن أن يصفها غيرهم، لكنك تكتشف سريعًا أن الكل بإمكانه أن يحبك سجادة الواقع اللبناني فلا شيء يبدو خافيًا أو ملغزًا أو سريًّا، لكن أحدًا بعينه لا يملك الحل ولا يمكنه أن يتبجح بقدرته على اجتراح معجزة الشفاء!!

ما من خيط في يد شخص واحد، كل الخيوط في يد كل الزعماء وكل الحلفاء وكل الفرقاء، هذا بلد لا يمكن أن يحكمه فرد، كما لا يمكن أن تتفق أي جماعة على حكمه، فحين أراد أن يحكمه الحريري الكبير منفردًا قتل، وحين اتفق «الآذاريون» انقسموا بين ثمانية و14، وحين تحالف الشيعة والموارنة دخل البلد إلى غرفة الإنعاش!

1937: بيروت

في كل مرة أسافر فيها إلى لبنان لا أفوت فرصة الذهاب إلى جبيل، المدينة الساحلية التاريخية القديمة التي تعبق برائحة الحضارة الفينيقية، وبالآثار التي ستعبر عليها حتمًا وأنت تمر عبر الجزء القديم منها حيث السوق القديم ومعبد الملك حيرام والقلعة والميناء وفندق «بيبلوس سورمير» المطل بوداعة على البحر المتوسط والذي يعود تاريخ بنائه لسنوات السبعينيات وتعود ملكيته لأحد التجار الأرمن في المدينة، السوق القديم مرصوف بالحجارة الجبلية ومسقوف بها أيضًا على طراز الأسقف ذات الأقواس الحجرية المهيبة، دكاكين السوق متلاصقة وصغيرة جدًّا وبالكاد يمكنها استيعاب ثلاثة أشخاص مع البائع أو البائعة، أغلب التجار في السوق لبنانيون من أصول أرمنية شباب صغار السن وشيوخ عجائز، حين تسأل العم جورج، أحد تجار السوق عن سعر تحفة صغيرة ملقاة على مدخل المتجر يقف متمهلًا ويفكر كثيرًا قبل أن يقول لك: بـ 8000 ليرة فإذا كنت لحوحًا وأردت استعراض مواهبك الخاصة جادلته بعض الشيء لتحصل على تخفيض بـ 1000 ليرة لا أكثر!!

على مدخل أحد الدكاكين جلست سيدتان تتحدثان الأرمنية، بينما وقف ابن إحداهما حاملًا صورًا بالأبيض والأسود تعود لمدينة بيروت ومدن لبنانية أخرى، كانت والدة «جارو» صاحب الدكان تشرح لجارتها تفاصيل الصورة، بينما بدت الدموع واضحة في عينيها، وقفت أتفرج معهم، قال الشاب: ألا تريدين أن تشتري صورًا تاريخية لبيروت، هذه الصور تعود للعام 1937، لدي بعض هذه الصور كنت قد اشتريتها في زيارة سابقة للسوق، قلت للسيدة التي كانت تشرح لجارتها بالأرمنية: ألم تري هذه الصور من قبل، أراك حزينة جدًّا؟ قالت بلهجة لبنانية صافية: أنا عشت هذه الصور، عشت هذا التاريخ، ولذلك أنا حزينة لهذه الدرجة. أكملت بتلقائية: هذه الصور تبعث على الحزن فعلًا!!

تبدو بيروت كما في الصور عام 1937 مدينة جميلة نظيفة ومرتبة جدًّا، الشوارع واسعة، عربات الترام تعبر في مساراتها بانتظام واضح، الناس رجالًا ونساءً في غاية الأناقة، الكل يرتدي بدلات رسمية، ويعتمر القبعات على الطريقة الفرنسية، البنايات ذات عمران أجنبي الطابع، الشرفات أنيقة ولافتات واضحة تعتلي تلك البنايات تعلن عن أسماء شركات أدوية وغيرها، وعلى أرصفة الشوارع بدت مقاهي الأرصفة بمظلاتها المخططة ما يذكرك الآن بمقاهي باريس أو بروكسل أو فيينا، يا إلهي، ما الذي حدث لهذه المدينة الجميلة؟ كيف سرقت الحروب والمؤامرات والتحالفات والجهل والشرور والصراعات المذهبية كل هذا الجمال وهذا التحضر؟ كيف صار أهل بيروت يضيقون بمدينتهم التي كانت ست الدنيا وعروس الشرق وسويسرا العرب؟ كيف صاروا يهجرونها بحثًا عن

سبل عيش أكثر رخاء، هل ضاقت بيروت بأهلها أم ضيق عيشها أناس تسلطوا على السياسة داخلها وآخرون تحكموا في مصيرها من الخارج؟

لا تضيق البلاد بأهلها لكن قاتل الله الفقر والجهل والفساد حين يحكم قبضته على أي شيء.

مدينة زحلة.. جارة الوادي:

هذه هي المرة الثالثة في حياتي التي أقضي فيها العيد بعيدًا خارج الإمارات، كانت المرة الأولى عام 1985 عندما قضيت العيد في مدينة إزمير التركية، وقد كان عيدًا كئيبًا بعض الشيء، ولا ذكريات محددة أختزنها عن ذلك اليوم، المرة الثانية كانت عندما عانيت من آلام مبرحة في قدمي لدرجة أنني ما عدت أقدر على المشي، فحزمت حقائبي إلى ميونخ، قبيل العيد بعدة أيام. قبل موعدي مع الطبيب أخذت القطار صبيحة العيد الى إيطاليا لمدة ثلاثة أيام وأيضًا
لا إحساس بالعيد تمامًا، مر النهار عاديًّا كأي يوم آخر، صفة الأيام نحن من يصنعها، الخارج يزينها والطقس الاجتماعي العام يضفي عليها ألوانه المختلفة، أما اليوم على جدول التاريخ فليس سوى زمن محايد اليوم كالبارحة، في إيطاليا كما في طوكيو يمر كما هو 24 ساعة لا أكثر ولا أقل، نحن من يجعله طويلًا أو قصيرًا، جميلًا أو كئيبًا، أبيض أو أسود، فلا لون للأيام ولا طعم ولا رائحة كالماء تمامًا.

في لبنان أقضي العيد الثالث والذي سيتكرر لاحقًا لسبب أو لآخر، فبعد أن فاتتني اللحاق بطائرة العودة إلى الإمارات قبل العيد بعدة أيام، منيت نفسي أنني سأجد مقعدًا آخر على أية رحلة عائدة إلى دبي، لكنني اكتشفت أن كل الرحلات محجوزة من وإلى بيروت! قلت لنفسي لا بأس سيكون عيدًا جميلًا بلا شك فلي هنا أهل وأصدقاء كثر.

في أول أيام عيد الأضحى، انطلقت بنا السيارة، صديقتي وأنا عبر طريق الجبل بحمدون ضهر البيدر شتورة - زحلة، أمام اللوحة المكتوب عليها شتورة قال أبو عمر سائق التاكسي بصوت عال: تعرفون الفنانة بديعة مصابني، الراقصة، هي من هذه البلدة اللبنانية، لم نعلق وأكمل طريقه!

في زحلة توقفنا، وفيها قضينا أول صباحات الأضحى، وهناك عرفت سر ذاك الغرام الذي ملأ قلب أمير الشعراء أحمد شوقي بجارة الوادي زحلة، فهي مدينة لا يسعك سوى أن تغرم بها كما فعل شوقي ومحمد عبد الوهاب حين خلداها بقصيدة «يا جارة الوادي».

وعلى ضفاف نهر البردوني تصطف مقاهي زحلة، وفي مدخل فندق عرابي ينتصب تمثال نصفي لمحمد عبد الوهاب قام بنحته النحات اللبناني «شاهين رفول»، على قاعدة التمثال نقش البيتين الشهيرين من قصيدة يا جارة الوادي:

يا جارة الوادي طربت وعادني

ما يشبه الأحلام من ذكراك

مثلت في الذكرى هواك وفي الكرى

والذكريات صدى السنين الحاكي

وبجواره تمثال نصفي آخر لأمير الشعراء شوقي، وضعه أهالي زحلة تكريمًا واحتفاءً بزيارة شوقي لمدينتهم عام 1925، حيث نقشت أسفل التمثال الأبيات التالية:

أن تكرمي يا زحل شعري إنني

أنكرت كل قصيدة إلّاك

أنت الخيال بديعه وغريبه

الله صاغك والزمان رواك

عشق شوقي جارة الوادي والبردوني زحلة، عشق طبيعتها وسحرها ونقاء مناخها ولذة طعامها ونبوغ شعرائها، وحين سئل عن رأيه فيها قال: «لقد اتخذت من زحلة وطنًا لي بعد مصر»، ومثله قال عبد الوهاب حين غناها، في جارة الوادي ومثله فعلت نور الهدى وبعدها فيروز.

وبرغم برودتها القارسة إلا أن التسكع في مدينة لم تغلق أبواب محالها يوم العيد أمر يثير الكثير من البهجة في النفس، خاصة وأن زحلة مدينة أكثر أهلها مسيحيون، يا جارة الوادي ستبقين في القلب ذكرى عيد بهي حقًّا.

(3) الكويت.. التي تملأ ذاكرتي

لم تستغرق الرحلة من دبي إلى الكويت أكثر من ساعة ونصف الساعة، هي نفسها المسافة التي أحتاج إليها للوصول إلى «أبو ظبي»، مسافة قصيرة جدًّا ومريحة جدًّا لمسافر يعرف تمامًا إرهاق المسافات وقلق الأسفار، المسألة الأهم أنني لا أقطع مسافة فيزيائية فقط، ولكنني واقعيًّا أتجاوز زمنًا يفصلني ويقربني في الوقت نفسه من تلك الأيام البعيدة التي زرت فيها الكويت لآخر مرة!

إنه زمن كثير تراكم في منتصف الطريق بيني وبين بلاد حبيبة وقريبة جدًّا كقاب قوسين أو أدنى، إنها الكويت هذا الاسم الذي حفظته ذاكرتي لأول بلاد لم أرها، فمنذ تحدث الناس في حيّنا عن المدرسة الكبيرة التي ستتعلم فيها البنات، واسم الكويت كان حاضرًا أبدًا، كانت مدرسة طفولتي جميلة بكل معايير الصغار، كل ما يتعلق بها جديد وملون وضاحك ومختلف: البناء، الفصول، الزي المدرسي، الصديقات اللواتي لا يشبهن صغار الحي، طابور الصباح، موسيقى النشيد، الإذاعة المدرسية، المعلمات الملهمات والجميلات جدًّا، الفصل المدرسي، الطاولات والكراسي المشتركة، ثم الكتب المدرسية، وحقائبنا التي ستلازمنا كخصوصية عامة لجميعنا حتى تخرجنا في المدرسة الثانوية، كانت حقيبة كتب وشؤون خاصة وأسرار، مخبأ دواوين نزار قباني في سنوات المراهقة، وصور أبطال السينما، ومجلات الكوميكس المترجمة التي نتابع فيها قصص الحب والأبطال الإيطاليين شديدي الوسامة، كانت الكويت مرتبطة بكل هذه المفردات المدرسية، من هنا استقر اسم الكويت في وجداني كقوس قزح أو كعلبة ألوان وكتاب قراءة وحقيبة مدرسة، لا أدري لماذا لم أذهب لزيارتها كل تلك السنوات التي أعقبت زيارة فترة الجامعة؟ بالرغم من أنني كنت أشعر دائمًا أنها على مرمى نظرة، وعلى امتداد جملة أو خبر في الصحيفة، وحينما يكون الحديث دائرًا عنها، عن انتخاباتها وكتابها وزيارات الصديقات إليها، أشعر أنني لو مددت يدي لتمكنت من فتح أي باب فيها ولدخلته مطمئنة وكأنني أعرف كل أهل البيت.

لا سبب جوهريًّا لعدم زيارتي للكويت سنوات طويلة سوى انشغالات الحياة لا أكثر، فبعض الأمور تحدث هكذا دونما سبب، برغم متابعتي اللصيقة لكل الشأن الكويتي، ورغم أصدقائي المثقفين والصحافيين الكويتيين، ورغم لقاءاتي بهم في كل المنتديات والمؤتمرات التي تعقد في دبي، ورغم المسلسلات الكويتية والأغاني والمطربين الكويتيين، ورغم الروائيين الكويتيين كسعود السنعوسي وإسماعيل فهد إسماعيل اللذين أحبهما وأقرأ لهما دائمًا، برغم كل ذلك وربما لكل ذلك أشعر كأنني أزور الكويت كل يوم حتى لو لم أحزم حقائبي وأستقل الطائرة وأسافر.

آخر زيارة إلى الكويت كانت يوم جئناها طلابًا من جامعة الإمارات، أوفدتنا الجامعة لنطلع على تجربتها الإدارية الرائدة في تلك السنوات فيما يتعلق بتوطين الوظائف نظرًا لتشابه الظرف بيننا، وبعد أكثر من خمسة وعشرين عامًا على تلك الزيارة، ها أنا اليوم في الكويت، وقد نما عشب كثير في المسافة بين اليوم والأمس، لأطل على تجربتها الثقافية العميقة وهي تستعد لافتتاح واحد من أكبر المراكز الثقافية في المنطقة، وهو «مركز الشيخ جابر الأحمد الثقافي»، الذي سيمتد على مساحة

تتجاوز الـ 200 ألف متر مربع في قلب مدينة الكويت، مطلّا على ضفاف الخليج، ومتوغلًا في أعماق عالم الموسيقى والمسرح والفنون العالمية.

حين لاحت المدينة من السماء قبل أن تهبط بنا الطائرة، شعرت بأنني بعد قليل سألج عتبة بيت أعرفه جيدًا، أعرف المدينة مذ كنت طفلة، ارتبط اسم الكويت في وجدانها بكل ما له علاقة بالمدرسة والكتب والمعرفة والعطاء، وهو عطاء يعرفه كل إماراتي وإماراتية، ممن درسوا في مدارس كانت ترعاها وتشرف عليها حكومة الكويت سنوات الستينيات، هذا العطاء الذي ظل علامة فارقة لها ولكل دول الخليج لاحقًا.

سوق المباركية.. روح المكان:

في كل بلد سافرت إليه، وجدت الناس أو المسافرين لتلك البلاد يحبون زيارة الأماكن الأثرية أو التراثية أو الجزء القديم من المدينة والتردد عليه والجلوس إلى مقاهيه والتبضع من حوانيته الصغيرة، فمنطقة قديمة وأثرية كالقاهرة التاريخية مثلًا تشهد تدفقًا سياحيًّا كبيرًا على امتداد اليوم من قبل سياح يأتون من كل الدنيا ليمشوا في شارع المعز، ويتأملوا مسجد الحسين، ويحتسوا القهوة في مقهى نجيب محفوظ، يشترون تذكارات بسيطة بأسعار زهيدة جدًّا من أزقة الحسين وخان الخليل والغورية، لا شيء يوازي متعة التسكع في تلك الأمكنة، فهناك تسكن روح المدينة الحقيقية، الأسلاف الذين عبروا أرضها خلال كل الحقب والأزمنة، هناك تنتظرك المدينة بكل بساطتها وجمالياتها وضوضائها وتناقضاتها، ومثلها المنطقة القديمة في براغ، في بروكسل، في سوق جبيل القديم بلبنان، في الجزء التراثي من مدينة باكو الأذارية، في برشلونة وإسطنبول.

في الكويت، حين فكرت في مكان قديم، وجدت من ينصحني بمنطقة المباركية، والمباركية تشير غالبًا إلى سوق المباركية، أكثر مما تشير إلى منطقة سكن أو معالم أثرية، هو سوق كبير من حيث المساحة، ومتنوع من حيث معروضاته وبضائعه فكل ما تتوقعه وما لا تتوقعه من البضائع والاحتياجات موجود تحت سقف سوق المباركية، وبرغم بساطة بنائه الخارجي لكنه ينتمي لذلك الطراز من المعمار الذي ساد الكويت قديمًا سنوات ما قبل النفط، يقع السوق في منطقة اسمها «القبلة» يأخذ شكل الأسواق القديمة التراثية المعروفة، وتذكرك بواباته الخشبية العتيقة بسوق جبيل القديم، وبسوق دبي القديم، وغيرهما من الأسواق!

تعود تسميته، كما تذكر المراجع، إلى الشيخ مبارك الصباح، وهو من المعالم التراثية لدولة الكويت، فإذا دخلته باحثًا عن شيء ما، ستجد نفسك تدخل متاهة بلا نهاية من الممرات والدهاليز والدكاكين والبضائع من كل صنف، في أوله تفوح روائح السمك، وتحلّق طيور النورس، وفي أعماقه تفوح روائح الزيتون والزعتر البري وجميع أنواع الفواكه، لقد ذكرني بسوق برشلونة للفواكه واللحوم والطيور الذي يقع في شارع الرامبلا الشهير باتجاه الميناء، مع فوارق طفيفة في التنظيم والترتيب بطبيعة الحال!

تشعر وأنت تقلّب البضائع بأنك تمر بكل دول العالم، فالمواد الغذائية والاستهلاكية والحلويات الشعبية والتمور والعسل ومحلات العطارة والملبوسات الرجالية والنسائية، إضافة إلى مجموعة من محلات الإكسسوارات والسلع التراثية والتحف والخزفيات والتذكارات أتى كل منها من بلاد مختلفة.

عن نفسي، استعدت ذلك التسكع في سوق (الجراند بازار) في إسطنبول، أو السوق الكبير والمتشعب كمتاهة والمليء ببضائع من كل مكان، وغير البعيد عن سوق البهارات أو ما يُعرف بالسوق المصري، في نهاية المطاف، فإن هذا ما يبقى في الذاكرة من كل مدينة: روائح الأسواق: الأطعمة، العطور، الزهور، وألوان الملابس والأقمشة والهدايا والأواني والتحف!

(4) تحت شمس براغ!

تبدو براغ كعاصمة غربية شديدة الاعتداد بتاريخها وأصول حضارتها، وشواهدها التي تشعر وأنت تتنقل بصرك بينها أنها أكثر من أن تعد أو تحصى، مدينة شديدة الخصوصية والتنوع، يعود تنوعها لتمايز فن المعمار فيها، والظاهر في كل مبنى تعبره عيناك كسائح، خاصة إذا كنت ممن مر على مدن أوروبا الغربية في ألمانيا وفرنسا والنمسا، وغيرها، فبراغ تحديدًا تجمع مدارس المعمار وفنونه كلها: الحديث والباروكي ومعمار عصر النهضة والقوطي، وكل ما تركه ملوكها البوهيميون من فنون وثقافات وكنائس وجامعات وجسور وقصور وأبراج
لا تخطئها العين لكثرتها، فإضافة إلى كل ألقابها كالمدينة الذهبية وقلب أوروبا، فإن براغ تفخر بلقبها كمدينة المائة برج الراسخة فوق أسطح القصور العتيقة والكنائس ذات التاريخ القديم.

أن تذهب إلى براغ يعني أن تعبر مدينة عمرها آلاف السنين، تنتمي لحضارات عديدة، وتجاور في الجغرافيا مدنًا وعواصم من شرق وغرب القارة العجوز، وهي مدينة محظوظة جدًا، لأن الدمار الذي اجتاح مدن أوروبا سنوات الحرب العالمية الثانية لم ينل منها، فحافظت على تراثها وجمالها، الأمر الذي أهلها لأن تصنف واحدة من مراكز التراث العالمي على لائحة «اليونيسكو»، إضافة إلى كل ذلك، فإن براغ مدينة لا تحتمل تحت درجات الحرارة العالية (إذا تجاوزت الحرارة الـ 30 مئوية أصبحت شوارع براغ لا تطاق)، وعليك مغادرتها فورًا، خاصة إذا كنت ذا مزاج تعكره الحرارة العالية، والازدحام الشديد، وبراغ وجهة سياحية شهيرة تجعلها مزدحمة باستمرار.

من سوء حظي أنني دخلتها يوم السبت الموافق السادس عشر من شهر يونيو، في تمام الثانية عشرة ظهرًا، بينما ترمومتر الحرارة في السيارة يشير إلى أن حرارة الجو تبلغ 34 درجة مئوية، كنت أحلم ببراغ منذ سنوات طويلة، ولطالما تمنيت هذه الزيارة لكن الظروف لم تسمح، وحين سمحت وقف الطقس عائقًا من دون النظر إليها بالحميمية التي في خاطري لمدينة لم أرها، لكنني حملت لها حبًّا غامضًا لا أعرف له مبررًا، ربما لكثرة ما قرأت عنها من خلال عيون الشاعر العربي الكبير الجواهري الذي خرج من بغداد ميمَّما صوب أوروبا، في رحلة نفي استمرت 30 عامًا قضاها في براغ، وقال عنها الكثير الكثير.

في كل أسفاري الكثيرة إلى أوروبا، فإن حرارة الطقس المفاجئة تجعلني طريحة الفراش أيامًا، حدث ذلك لي في باريس وفي بروكسل وفي ميونخ، أما في لندن فأصابني موسم الربيع بحساسية القش كما يسمونها، أما براغ فقد أصرت على ألا تخرج عن الخط، فمنحتني يومًا متوترًا بسبب تلك الحرارة العالية، والشمس التي فضلت بسببها أن أجلس في ظل مقهى كان نادله فظًّا وسيئ الخلق على أن أمشي قاطعة شطري المدينة عبر أشهر جسورها: جسر تشارلز الذي
لا تحلو زيارة براغ إلا إذا مشيته متأملًا نهر الفالتافا الذي يشطر براغ إلى قسمين، مع ذلك فقد اخترت حلًّا وسطًا، حيث قطعت الجسر المحاذي له بالسيارة!

حين جلست على مقهى آخر، كانت نادلاته معظمهن من الصبايا الفاتنات، لفتني أمران: أن براغ مدينة مصابة بغلاء فاحش يوتر الأعصاب، وأنها تتبع عادة رش الماء على أرضية المقاهي، كما نشاهد في المقاهي القديمة الطراز في القاهرة القديمة، كما يظهر في المسلسلات المصرية! سألت النادلة لماذا ترش الماء على أرضية المقهى، فقالت الجو حار جدًّا، وهذا يؤدي لتبريد المكان قليلًا، لكن ما الذي يبرد حرارة الأسعار؟

لا شيء يمكنه أن يبردها في مدينة سياحية تشهد هذا التدفق الإنساني المخيف بالشكل الذي شاهدته على جسر تشارلز، ما جعلني أهرب باحثة عن أقرب مظلة، براغ مدينة جميلة جدًّا، لكنني لسبب ما لحظتها تمنيت لو كنت في بيروت!

إذا كنت في براغ.. فلا تفعل مثل أهلها!

وصلت إلى براغ في الثانية ظهرًا، سار كل شيء بشكل سريع وبسيط وبطيء جدًّا كعادة هذه الدول التي ما زال «رتم» الحياة يسير فيها بطاقة البخار، تريد أن تنطلق إلى المستقبل بينما أطنان من أثقال الماضي وتركة العلاقة بما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي تجرها للخلف أو على الأقل تسمرها في مكانها أو تجعلها تتحرك ببطء سببه تعثر الاقتصاد وتعثر سياسات الحكومة، ومنذ أن جئتها لأول مرة، فإن أهلها
لا يزالون يعاملون القادمين بخشونة تنم عن طبع متأصل على ما يبدو!

احتاجت صديقتي لزيارة إحدى الكنائس الأثرية الشهيرة في المدينة، فاحتجنا لاسم المكان لنعطيه لسائق سيارة الأجرة، كما احتجنا لسيارة أجرة ابتداء، احتاج الأمر نصف ساعة للعثور على سائق يعرف معالم مدينته ولأعصاب باردة لتحمل فكرة أن موظفين في واحد من أرقى فنادق المدينة لا فكرة لديهم عن معلم أثري يأتي زواره من جهات الدنيا الأربع، وحين عثرنا على السائق العبقري كان النهار قد انتصف وأعلنت صديقتي ندمها على اختيارها لهذه المدينة، لكنها عادت وتراجعت عن ندمها! حين شاهدت جمال الكنيسة وما يحيط بها!

اخترت الإقامة في فندق يطل على نهر الفالتافا الذي يقسم براغ قسمين، ويبعد بضع خطوات عن ساحة المدينة القديمة، على جوانب هذه الساحة الواسعة ذات المداخل العديدة تتوزع المقاهي والمطاعم والمباني الأثرية.

وفي قلبها ستقع عيناك حتمًا على كل المشاهد التي يمكن رؤيتها في ساحات عواصم ومدن أوروبا من العازفين، الموسيقيين، الرسامين، الأطفال والعشاق، وعلى مقربة من الساحة القديمة، وبعد أن تتجاوز بضعة شوارع فرعية سيظهر لك الفالتافا منسابًا ورقراقًا وحاملًا مئات السنين من التاريخ والأحداث من خلال تلك الشواهد التي تطل عليه من الضفتين!

مقهى «سلافيا» الذي اعتاد الشاعر العراقي الجواهري الجلوس فيه يوميًّا أثناء إقامته في براغ، يطل على نهر الفالتافا وقلعة براغ، وقد تردد عليه كافكا، وريلكه الشاعر الألماني الشهير المولود بمدينة

براغ، كما تردد على نفس المقهى بابلو نيرودا وناظم حكمت.

أما مقهى كافكا الأديب التشيكي الشهير فالعجب أنه تحول إلى مقهى بعد أن كان مكتبة شهيرة في المكان ذاته في الساحة القديمة نفسها وسط براغ، قالت لي النادلة حين سألتها عن السبب: إن الناس يريدون أن يشربوا الكابتشينو والموكا على طريقة الأميركان لا أحد يريد أن يقرأ في هذه الأيام! يبدو أن ربيع براغ لن يزهر أبدًا كما ينبغي له!

على جسر تشارلز :

أحب مدينة براغ ولقد ترددت عليها كثيرًا، رغم أن علاقتنا كخليجيين بمدن أوروبا الشرقية، محكومة بنظرة محدودة منذ الثمانينيات باعتبارها كانت مقصد الكثيرين منا للعلاج في مصحاتها الاستشفائية، ضمن منتجعات تتوسط طبيعة جميلة بالفعل، ومنذ تلك السنوات والفكرة السائدة لدى معظمنا أن هذه الدول التي كانت تصنف باعتبارها من ملحقات الاتحاد السوفييتي، تفتقد رفاهية وتطور وخدمات مدن أوروبا الغربية، التي يفضلها العرب عامة، والحقيقة أن لمدن أوروبا الشرقية طبيعة مغايرة، وهي مختصة بالفعل في تقديم خدمات علاجية واستشفائية تجتذب الملايين سنويًّا، إضافة إلى أنها ذات تاريخ عريق وطبيعة خلابة وأمكنة جديرة بالزيارة، إن هذه الخصوصية التي تميزها لا تنفي تأخرها فيما يتعلق بمجالات الخدمات والفنادق والمطاعم ومستويات تعامل الناس مع السياح!

أسير وصديقتي في براغ مجددًا نقطع جسر تشارلز الشهير باتجاه البحث عن مطعم أو مقهى، الصيف هنا مختلف بكل المقاييس عن ذاك الطقس اللاهب الذي تركته خلفي، السماء ملبدة بالغيوم، والنشرة الجوية تبشر بسقوط أمطار طيلة الهذا النهار.

تشي مباني براغ وكنائسها وجسورها وقلاعها وطرزها المعمارية كلها بتاريخ عريق، بينما لا تسمع في شوارعها ومطاعمها ومراكزها الكبيرة لغة التشيك القريبة من الألمانية، ما تسمعه خليط من اللغات لكثرة السياح في المدينة، فإذا توقفت لتسأل عن شارع أو متحف أو قصر، لا تتفاجأ إن لم تجد شخصًا يدلك على ما تبحث عنه، فلا أحد يعرف المدينة، لأن كل هؤلاء ليسوا بأهل المدينة، تمضي إلى أقرب فندق، حيث الجميع يتحدث الإنجليزية بلكنة أميركية، هناك قد يكون حظك جيدًا فتجد من يفتح خريطة المدينة ليدلك على ما تبحث عنه أو يكتب لك العنوان لتعطيه لسائق سيارة الأجرة الذي سيتكفل بإيصالك لوجهتك بأجرة تعتبر زهيدة قياسًا بأسعار مدن السياحة العالمية.

تتذكر ما كان في الماضي، معاناة الناس ومحاولات الخروج من قبضة روسيا الحديدية، ربيع براغ وكيف أجهض بشراسة الدبابات الروسية التي اجتاحت شوارع المدينة لتعيد كل شيء إلى سابق عهده، ولتدخل التشيك في خريف طويل أرادوا استعجال ربيعه لكنهم ما استطاعوا أمام جبروت سياسيات وسياسيي الكرملين!

لكن تأثير ذلك الربيع المجهض ظل يتنامى دافعًا الكثير من المبدعين للهجرة، ولعل أعمال الكاتب التشيكي ميلان كونديرا، واحدة من تداعيات ذلك الحدث، بعد أن هاجر إلى باريس ونشر أعماله، مشكلًا حجر الزاوية في الوعي الغربي حول موضوع الإصلاحات والحرية، وهو ما قاد لاحقًا إلى ثورات متتالية، قادت لاستقلال التشيك 1993!

انتهى الاتحاد السوفييتي بسقوط جدار برلين، وانفصلت الجمهوريات الأوروبية بثورات متتالية، لتدخل مرحلة انفصالات وحروب، بعضها أعلن استقلاله وانضم للاتحاد الأوروبي، وبعضها يحث السير في هذا الاتجاه، في نهاية المطاف، فإن الأوطان العظيمة والإنسان المدافع عن حقوقه وحريته، هو من يبقى، وكل الزبد يذهب جفاء، أما الأكثر أهمية، فهو وعي الإنسان أن الحرية لا تأتي على حساب الوطن، ولا على أجساد أبنائه، ولكن بالحفر في عمق الوعي، ليأتي الإصلاح تلبية لحاجة، وليس تنفيذًا لأجندات خارجية!

(5) ياشيموف.. حيث «التقيت» مدام كوري

في مدينة ياشيموف، كان وجه «ماري كوري» هو أول ما استوقفني في مدخل فندق الراديوم بالاس الشهير كمركز للاستشفاء والعلاج بالمياه المشعة، كانت صورتها تحتل مدخل الفندق، تلك الصورة الباهتة لوجه امرأة بولندية دقيق الملامح بتسريحة شعر تقليدية جدًّا، وثياب شديدة الاحتشام، هذه هي نفس الصورة التي رأيتها لمدام كوري على غلاف أول كتاب اشتريته في حياتي وأنا بعد تلميذة صغيرة في الصف الخامس الابتدائي، هأنذا بعد سنوات طويلة أنزل في ذات الفندق الذي سكنته «ماري كوري» عندما زارت المنطقة منذ سنوات بعيدة، لإجراء تجاربها حول النشاط الإشعاعي لبعض العناصر الطبيعية، هذه العناصر التي ستتسبب لها لاحقًا بمرض فقر الدم اللا تنسجي والذي سيكون سببًا في وفاتها في باريس!

ففي ربيع سنة 1934 زارت مدام كوري وطنها الأم بولندا للمرة الأخيرة في حياتها، إذ توفيت بعد شهرين من تلك الزيارة (في 4 يوليو 1934) في مصحة بإقليم سافوا العليا شرق فرنسا، حيث كانت تعالج من فقر الدم اللا تنسجي الناجم عن تعرضها الزائد عن الحد للعناصر المشعة، في زمن لم تكن الآثار الضارة للإشعاع المؤين قد عرفت بعد، وبالتالي لم يكن العلماء الذين يتعاملون مع تلك العناصر على دراية باحتياطات السلامة اللازمة، فلطالما حملت مدام كوري أنابيب اختبار تحوي نظائر مشعة في جيبها، ولطالما وضعتها في درج مكتبها دون أن تدرك أخطارها الجسيمة. كما تعرضت للأشعة السينية من الأجهزة غير المعزولة، أثناء خدماتها التي كانت تقدمها أثناء الحرب.

في أقصى الزاوية من جهة المدخل، تستقر الطاولة التي اخترتها لمجلسي اليومي، حيث أشرب قهوتي، وأطالع آخر الأخبار عبر الإنترنت، هنا في مقهى الفندق العتيق جدًّا الذي كتب أصحابه على مدخله أنه أقيم عام 1912 في المنطقة التي تشرف على جبال كروشنا في أقصى شمال جمهورية التشيك على الحدود الشمالية الغربية مع ألمانيا، تغفو المدينة على المطر، وتصحو على الغيم، تتوسد الجبال، وتشاكس الغابات، وهذا يعني أن الفندق الذي أسكنه يعيش سيمفونيته منذ أزمنة طويلة، ويكمل اليوم مائة عام على إنشائه، وأن قوافل من البشر قد عبرت بوابته، ومشت في ممراته، وسكنت حجراته الكثيرة.

الغرب بشكل عام يحتفي بالتاريخ والتأريخ، ويعتني بتدوين أحداثه، وتفاصيل يومياته، يكتب الأوروبيون كما يتنفسون، وهم من جعل ارتفاع معدل إنتاج الكتب وساعات القراءة اليومية للفرد وللأمة مقياسًا للتنمية الإنسانية، المعترف بها عالميًّا، فحين يريد الغرب أن يعير أمة أو بلدًا بأكثر الرذائل الحضارية من وجهة نظره، فإنه يعيب عليها تدني منسوب القراءة بين أفراده، وقلة إنتاج الكتب فيه سنويًّا. إن ارتفاع الناتج القومي من الكتب وارتفاع معدل القراءة بين الأفراد معيار تحضر لا يقل أهمية ودلالة عن ارتفاع الناتج القومي من الذهب أو الدخل القومي من صناعة السيارات أو البترول إن لم يتفوق عليها.

يكثر تردد العرب على المكان الذي أقمت فيها شهرًا كاملًا في مدينة ياشيموف المنتج الصحي التشيكي الهادئ، وهم يأتون للاستشفاء والتمتع بالطقس والهدوء، وكما يقول العاملون في الفندق فإن مجيء العرب إلى هنا يعود إلى سنوات طويلة ماضية. مع ذلك، فإنني حين قلبت صفحات كتاب الزوار الذي وجدته في مكان قصي من المقهى لم أجد فيه سطرًا دوَّنه زائر عربي حتى ولو بطريق الخطأ، بينما استوقفتني الصفحة الأولى من الكتاب الضخم، كانت صفحة صفراء تآكلت أطرافها بشكل واضح، وقد تحركت من مكانها لانقطاع الخيط الذي يحكم ربطها ببقية الصفحات، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من قراءة كلمة واحدة إلا أن التاريخ المدون في أسفل الصفحة سمرني في مكاني!

بدت الكتابة في كل الصفحة بحبر أسود واضح ما ساعد على صمود الكلمات في وجه الزمن، بينما رسمت كلمات العنوان، «تانجو ياخيموف» بخط جميل ومختلف، كما بدا أنه إهداء إلى المنطقة، وهو عنوان موسيقي بامتياز، لذا جاءت السطور التالية له جملًا موسيقية من السلم الموسيقي، ما يوحي بأن كاتب الصفحة الأولى ملحن أو مؤلف موسيقى.

الأسطر العشرة التالية مكتوبة بلغة تشيكية لم أفهم منها كلمة واحدة، ثم الاسم لم أستنتج إن كان يعود إلى رجل أو إلى امرأة، وأما التاريخ فكان 14 مارس 1955، أي منذ 57 عامًا، فأي صور ستتداعى في مخيلتك ساعتها؟ تساءلت فقط فيما إذا كان من كتب هذا التانجو الجميل ما زال في صحة جيدة!!

قلبت صفحات الدفتر الضخم، مررت بتواريخ وسنوات وأحداث، أحالني كل تاريخ إلى حدث جلل، وإلى مناسبة لا يمكن نسيانها، فذلك الذي وضع تاريخ أغسطس 1968 أخذني مباشرة إلى تلك الليلة التي لا يمكن لأهالي براغ نسيانها حين اجتاحت دبابات الروس عاصمة بلادهم ليلة 20 أغسطس من عام 1968 لتسحق أزهار الربيع الأول الذي أراد أن يتفتح في براغ يومها.. يا الله كم هي صعبة الذاكرة والكتابة والتاريخ، لذلك لا يكتب العرب، فمن بين كل صفحات الدفتر الضخم لم أعثر على تدوينة عربية واحدة، استوقفني الأمر، وأثار فيّ رغبة أن أكون المدون العربي الأول، وبلغة عربية صرف.

الفندق الذي أقمت فيه كان يحتفل بمرور مائة عام على تأسيسه كما أصدر نشرة تعريفية بكل ما يتعلق بإقامة مدام كوري عالمة الفيزياء الشهيرة التي قدمت من فرنساء للإقامة في ياشيموف، وفي هذا الفندق تحديدًا لتجري تجاربها حول عنصر الراديوم ومدى قدرته على شفاء مرضى الشلل، ومعروف أن مدام كوري حققت إنجازًا غير مسبوق باعتبارها المرأة الوحيدة التي نالت جائزة نوبل مرتين في حقل الفيزياء مرة وفي الكيمياء في المرة الثانية، والمحزن أن موتها كان بهذا العنصر المشع الذي ظل يلازمها في زجاجة زرقاء وفي النهاية قتلتها إشعاعاته الخطرة!

(6) إسطنبول.. مدينة التاريخ والحياة

حين يتعلق الأمر بالسفر بحثًا عن البهجة والمتعة، وحين يصبح التحليق تحت سماوات مختلفة وحميمة مطلبًا مُلحًّا للقلب والروح، فهناك منطق مختلف يفرض نفسه علينا، يختلف بل ويتعارض كلية مع منطق التخريب الذي يمارسه الإرهاب ضد كثير من المدن لينفروك منها، إلا أن المدن التي نحبها تستقبلنا دون تردد برغم جراحها، ونحن نذهب إليها برغم المخاطرة، لأن هناك ما يجذبنا إليها، ما يدعونا ويستدعينا لنذهب على جناح السرعة.

بعض المدن تشكل سماواتها مظلة واسعة، ملونة، أنيقة، وتفوح بكل الروائح، تستحضر كل الأطعمة، وتقدم روائح كل الحضارات. إسطنبول واحدة من هذه المدن، أجدها دائمًا كما أتمناها كلما شدني هاجس السفر إلى مدينة عابقة بكل الخيارات.

في اليوم الأول، وفي أحد مقاهي إسطنبول، هناك في تلك الزاوية الظاهرة أول ميدان تقسيم يبدو فضاء المقهى حالة إنسانية كاملة، تختلط فيها السياسة بالجغرافيا، والاقتصاد بالتاريخ، يختلط فيها بؤس اللاجئين برفاهية السياح، ضياع المهاجرين باحتيالات الفقراء والمحتاجين، فيضيع الباحث عن البهجة وسط الباحثين عن اللهفة واللقمة والأمان.

ويمتزج الباحثون عن أنفسهم بالباحثين عن الحكايات والقصص والصور، تجلس لتشرب (إستكانة) شاي تركي بدون سكر مع قطعة سميد من سميد سراي (قصر السميد) فتمر أمامك حياة كاملة وآلاف البشر، وتجهد نفسك وروحك كي لا تنزلق مع أصوات المتسولين وبائعي السبح والمناديل الورقية، فهؤلاء البائسون يتكئون عليك ليلتقطوا قوتهم وأنت تتكئ على نصائح كثيرة بألا تلقي لهم بالًا، وتظل روحك تواقة لفعل آخر وسؤال كبير يطاردك: ماذا لو منحتهم بعض المال؟ فتعرف أنه من الأفضل لو أنك لا تفعل!

في منطقة السلطان أحمد التاريخية، يلوح مسجد السلطان أحمد بقببه الكثيرة الرمادية اللون ومآذنه الشاهقة، وتمتد أمامه ساحة شاسعة مغطاة بمئات المقاعد، يتسكع بين ممراتها المعشبة آلاف الزوار من كل الجنسيات، النساء بمعاطفهن السميكة، الرجال بقلنسوات البرد وبالقفازات فبرد إسطنبول لا يطاق أبدًا، باعة الكستناء يقفون خلف عرباتهم ويتدفؤون بنار الشواء، العشاق يتدفؤون بحرارة قلوبهم، وعلى بعد خطوات جدٌّ يلتقط صورة لحفيده بينما يده ترتجف من البرد وهو يبتسم، والمسجد الأزرق يلتمع بقبابه الرمادية تحت سماء الشتاء الحالمة، وآيا صوفيا مكان قديم جدًّا لا يزال يتأرجح بين زمانين وحضارتين ودينين، صار متحفًا بعد أن تحول مسجدًا زمن السلاطين العظام الذين استولوا عليه من الإمبراطورية الرومانية إثر سيطرتهم على إسطنبول بكل إرثها وتراثها وكنائسها، كنيسة آيا صوفيا صارت متحفًا شبيهًا بجندي ينتصب على نقطة تماس خطيرة حفظًا لكثير من الاعتبارات والإشكالات، ومن غرائب الصدف أن يقف مسجد السلطان أحمد في مواجهتها وعلى بعد خطوات منها، هكذا تجاورت الحضارات وتحاورت بعبقريتها الخاصة دون صراع وفي مرحلة ما بعد الصراع كذلك!

إسطنبول مدينة أقامت مجدها في ظلال هضبة آسيا العظمى وألقت برأسها على وسادة أوروبا الحالمة، الجزء الأوروبي منها يبدو كمعطف بالغ الرومانسية تتدثر به إسطنبول كل يوم وتحلم أن تكون جزءًا منه، ليس من جغرافيته فقط ولكن من نسيجه الاقتصادي والسياسي!!

إسطنبول.. التاريخ الملغوم:

في المرة الأولى التي زرت فيها مدينة إسطنبول، كان ذلك بحكم الفضول لا أكثر، فقد تردد أمامي اسم المدينة كثيرًا بعد أن تحولت إلى وجهة سياحية مفضلة لأهل الخليج خلال الفترة التي أعقبت تدهور الأوضاع في لبنان ومصر وسوريا، وبعد أن كثرت وبشكل لافت الأعمال الدرامية التركية على فضائيات العرب والتي تتفنن في إظهار الأماكن السياحية والمناظر الخلابة في مدن تركيا وتحديدًا في إسطنبول، أردت أن أجرب المدينة فخططت لقضاء أسبوع فيها امتد لاحقًا إلى عشرة أيام، كان الطقس مواتيًا، كما أسهم سائق السيارة الذي رافقنا طيلة الرحلة في تعرفنا على تفاصيل المدينة بشكل جيد، لقد كان «أحمد» الشاب المصري المقيم هناك والمتزوج من تركية رفيقًا جيدًا في الحقيقة، خلط بين روح الفكاهة وذكاء الدليل السياحي، فكانت النتيجة أن فتح لي أبواب المدينة جميعها في عشرة أيام، فأولًا أحببت إسطنبول، وقررت أن أزورها مرارًا، كما ظلت منطقة البسفور والأرتوكوي مكانًا خلابًا لم يغادر ذاكرتي لفترة طويلة.

حفرت إسطنبول عميقًا في وجداني، كما وعزفت على أوتار كثيرة، موقظة الكثير من أحاسيس البهجة وتفاصيل الفرجة على رموز وأحداث وصفحات لا تحصى من التاريخ، هذا التاريخ الذي لا يزال يشكل حبل السرة الذي يربط إسطنبول -وكل تركيا- بماضيها وحاضرها ومستقبلها كمركز لآخر الخلافات الإسلامية وكعاصمة لسلاطين بني عثمان، الذين جعلوا منها شرفتهم الواسعة تطل من خلالها قصورهم المنيعة وقلاعهم ومساجدهم على أرض أوربا التي كانت ذات يوم ملعبًا لخيولهم وانتصاراتهم، فصارت مهوى أفئدة أحفادهم وغاية أمانيهم أن يصيروا جزءًا من اتحادها العتيد.

أول الملاحظات التي خطفت انتباهي هو ذلك الطوفان البشري من الخليجيين الذين يملؤون الفنادق الفخمة والأسواق والمقاهي ومحلات الحلويات التركية الشهيرة والمزارات السياحية، ولا يحتاج الأمر إلى استفسار، فالسياسة حاضرة كما التاريخ والجغرافيا، و«مصائب قوم عند قوم فوائد»، لذا فالأتراك مدينون لقسوة المناخ في أوروبا، وللثورات العربية وللأوضاع الأمنية المتردية في كل من مصر وسوريا ولبنان التي طالما كانت محجات السياحة الخليجية طيلة العقود الماضية، اليوم صارت تركيا الخيار السياحي الأول خليجيًّا طيلة العام، فالناس يذهبون إليها صيفًا وشتاءً وفي عطلات المدارس أيضًا، وهو ما حرك الكثير في مياه الواقع الاقتصادي التركي، الذي كان متعطلًا ككل اقتصادات العالم بسبب الأزمة المالية العالمية!

تركيا بلد سياحي من الطراز الأول، المسافة إليها لا تستغرق أكثر من أربع ساعات من مطار دبي الدولي، طقسها جميل وأرضها تعج بالخيارات، فالتاريخ حاضر بشواهده، والخيال ماثل بأساطيره،

هواؤها عليل وطعامها لذيذ، وأسواقها متنوعة عتيقة وأنيقة ورخيصة، وقهوتها فاخرة وفواكهها شهية، وأما الفرجة والمرح والتسكع وقضاء الوقت بشكل سلس فلن يحتاج منك إلا ارتداء معطف خفيف إذا كنت زرتها في فصل الربيع - والخروج إلى أحد الشوارع الغاصة بكل شيء ابتداء بالمتاجر وجموع السائحين وانتهاء بالمتسكعين والشحاذين الذين سيرددون على مسامعك الكثير من عبارات استدرار التعاطف والمال طبعًا، فما عليك سوى أن تتماسك قليلًا، ففي الشوارع كلها قليل من الصدق وكثير من الاحتيال والكذب!

هناك مواقف لا يمكنك أن تكون متماسكًا ومحايدًا لا تبدي تعاطفًا إنسانيًّا تجاهها، فقد يبدو أمرًا مقبولًا أن لا تصدق كل امرأة في مقتبل العمر تمد لك يدها وبإلحاح مشيرة إلى طفل بين ذراعيها، أو أن لا تتصدق على شاب يملك جسد مصارع مدعيًا أنه لاجئ سوري عاثر الحظ، لكنك حين تمر بطفلة لم تكمل عامها السابع ربما تفترش الأرض وتعزف لحنًا نشازًا على آلة موسيقية متهالكة طلبًا لبعض المال من المارة، فإنه لا يمكنك أن لا تضع في إنائها تلك العملات المعدنية من النقود التي تبقت في جيبك نهاية يوم حافل بالتسوق والتسكع، فإن قلت بأن الطفلة جزء من عصابة تستخدم الأطفال في أعمال التسول، فإن ضميرك لن يسمح لك بأن تمر على ذلك الشاب الذي يستمتع بالتقاط صورٍ بُؤسِها واعدًا إياها إن تركته يصورها أنه سيعطيها بعض الليرات، لكنه بعد أن انتهى منها سخر ومشى كأن شيئًا لم يكن ليتباهى بعد قليل بتلك الصور «العظيمة» على صفحته في تويتر أو الفيسبوك!

راقبت «لا أخلاقية» ذلك الشاب، ودخلت معه في حوار صارخ، فاجأني حين قال لي: «أنا حر أصورها كما أشاء» قلت له ومن أعطاك هذه الحرية؟ هذه طفلة ليس من حقك استغلال بؤسها؟ فالمسألة لها جانب إنساني، فهي ليست تمثالًا أو حلية في قصر ملكي! فكررها ثانية: أنا حر أصورها كما أشاء، ثم أضاف: «أنا سائح ولا يستطيع أحد منعي هل تستطيعين؟» كان وقحًا بما يكفي، بحيث لم يكن من الممكن ردعه أو استنهاض إنسانيته، فتركته وأنا أفكر في كلمة الحرية التي كررها كثيرًا في حديثه بينما هو في الحقيقة لا يفهم منها أي شيء!!

هذا الشارع أعرفه جيدًا!

هذا الشارع أعرفه جيدًا، مشيت فيه أيامًا عدة عندما كنت هناك، وتلك الحوانيت المتراصة على جانبيه أتذكرها، لقد حاذيتها لمساءات طويلة وأنا أسير دونما تحديد لوجهتي، أتذكر جيدًا ذلك المقهى لقد كانت قهوته جيدة، وكذلك طبق الحلويات الذي قدمه لي ما زال طعم سكره في فمي، لقد كنت يومها مستمتعة بضجيج الحياة في هذا الشارع، المزدحم حد الدهشة بالبشر من كل جهات الدنيا، لقد استسلمت يومها للبحث عن كل ما له صلة بالناس البسطاء، العاديين، المنتمين لبلد ملتبس في انتماءاته الحاضرة، حتى وإن بدت هويته الإسلامية غير خافية على الناظر والسائح منذ الوهلة الأولى حين يتغلغل في أحشاء المدينة المتلألئة بألف مسجد وألف مئذنة، ويصدح الأذان في جنباتها بعدد مرات الصلوات الخمس، قلت منذ البداية هذا الشارع تحديدًا أعرفه، أعرفه جيدًا كما يعرفه كثيرون منكم!

اليوم يتحول هذا الشارع الذي أعرفه جيدًا إلى صورة تلفزيونية، وإلى خبر على كل المحطات ووكالات الأنباء، بعد أن حوله الشباب إلى منصة لتوجيه رسالة واضحة وصارخة وسريعة جدًّا إلى رئيس الحكومة، وصدقوني فإن شعورًا قاسيًا بالحزن ينتابك حين ترى مكانًا أو شخصًا تعرفه جيدًا أو تحبه كثيرًا يتحول إلى موضوع عام منتهك ومعروض على الهواء مباشرة، شارع «الاستقلال» في إسطنبول، صار خبرًا وصورة تلفزيونية مختلطة، لا تدري أتصطف إلى جانب من يعترضون على إجراءات رئيس الحكومة، أم تقف ضدهم لأنهم حولوا المكان الذي تعرفه جيدًا إلى دمار وحرائق وفتحوا طرفي الشارع على المجهول؟!

كنت أسكن في فندق حديث في منطقة «تقسيم» بوسط إسطنبول منذ حوالي الشهرين، وكانت نوافذ غرفتي تطل على حديقة ضخمة جدًّا ويبدو واضحًا من ضخامة أشجارها أنها قديمة، شيء ما له علاقة قربى وثيقة بالذاكرة والحنين يربط الناس - كل الناس - بكل ما هو عتيق وقديم، لذا فإن المشروع السياحي التنموي الذي يصر أردوغان على المضي قدمًا في استكماله يرتطم بهذا الحنين ويفجر رأسه، لكنه في إسطنبول فجر ميدان الاستقلال وشارعه التجاري الطويل والشاسع جدًّا، ولا أظن الأمور ستسير لصالحه لأن زمان الدبابات الموجهة لصدور الناس لقمعهم قد ولى إلى غير رجعة!

أردوغان استفز الشباب بكلامه، بتلك الخطبة البائسة التي اعتصر فيها خلاصة الشعور بالعظمة القيادية التي يحسب أنها تخوله ليقول لهم اشربوا من ماء البسفور أو علقوا أنفسكم في أشجار تلك الحديقة التي تبكون عليها، فأنا ماض في مشروع تطوير وتنمية «تقسيم» ولو على حساب الذاكرة وما تحبون أو ما تكرهون، غاب عن بال الرجل أن المشروع يحمل في اسمه بذور تقسيم الرأي العام التركي ضده، إضافة لتركة أخرى مندسة هناك، حيث يقبع مشروع حزبه الإسلامي الذي يشكل توجهه اصطدامًا أشد خطرًا في موضوع الهويات القاتلة في تركيا اليوم وتركيا الغد!

(7) بانكوك.. مدينة شرقية صاخبة

في كل مرة نسافر فيها نقول لأنفسنا نحن ذاهبون للمتعة والفرجة، حيث للفرجة معنى أجمل للمتعة، فحين نسافر يتحول كل شيء يقع في المسافة ما بين العين وما تراه إلى موضوع للفرجة والمتعة والسؤال، بعض المدن تحمل أسماء بلا معنى وبعضها يختبئ وراء أسمائها، وبعضها يرتدي أسماءها كأقنعة تخفي بها حقائق صعبة التصديق ووجوهًا وحكايات وما لا يحكى ولا يقال، أما بعضها فما بين أسمائها وحقيقتها كما بين السماء والأرض، وبعضها يستمد اسمه من علاقته بالدين والسماء والأساطير والآلهة.

هناك مدن كمكة والقدس وروما مثلًا غائصة في الوجدان الديني لملايين البشر، أما مصر فمبشرة في القرآن بالأمان، أما دمشق فأقدم مدينة بناها الإنسان على وجه الأرض، وهناك مدن مثل: لوس أنجلوس يعني اسمها (مدينة الملائكة) فما هي المسافة بين الاسم وحقيقته، والأهم ماذا نعرف نحن عن الحقيقة وعن التاريخ القديم الذي انبثقت منه المدينة وتسلسل منه اسمها؟ ذلك متروك للطريقة التي ننظر بها للمدينة وللأبواب التي نفتحها والطرقات التي نعبرها وأي بشر نلتقي وأي حوارات نتبادل معهم!

حين نكتب عن المدن تستغرقنا الملامح الخارجية الظاهرة على السطح، تسرقنا متعة الفرجة على الأشياء قبل التغلغل في عروق المدينة وتاريخ البشر؟ وتلفتنا ماديات التفاصيل قبل روح الأمكنة؟ ماذا يكون البناء الشاهق والمعبد الفخم والضجيج الذي تخلقه سيارات «التوك توك» في شوارع مدن الشرق البعيدة، لولا حكايات الناس، قصص السيدات المهدودات تحت وطأة الكدح اليومي، وحكايات الرجال المملوئين بالانكسارات والإرادة التي لا تخفت، ماذا يكون زحام البشر وأضواء المراكز التجارية العابقة بأفخم العطور وأفضل الثياب وآخر خطوط الأناقة والسيدات والرجال الذين كأنهم خارجون من دفاتر الرسامين الحالمين، لو لم تفتش أعيننا عن تلك البائعات اللواتي ينتظرهن في بيوت الصفيح أو البيوت المتداعية في أحياء الفقر أسئلة الطعام والكساء والحياة والأحلام ولهاث الساعات الباكرة كل صباح جريًا للحاق بآخر قطار يركض إلى تلك المحلات الفاخرة؟

أمشي في هذه المدن وأتأمل وجوه الناس، هذه الوجوه الصغيرة النحيلة، وهذه الأجساد التي كأن أصحابها لا يتناولون طعامًا مثلنا، فأجدهم رغم الفقر والتدافع والكثرة يبتسمون لك حين تقف لتشتري منهم شيئًا بدراهم معدودة أو حتى حين لا تشتري، يضمون أكفهم وينحنون في امتنان شديد إذا وضعت في أيديهم ورقة نقدية ثمن بضاعة اشتريتها، هم في الحقيقة ممتنون على الدوام، ممتنون للحياة وللرزق وللإله ولكل شيء، ولن تسمع أحدًا يتذمر أو يشتكي،
لا وقت لذلك أو ربما لا داعي أبدًا، كما أنه لا داعي لرفع الصوت ولا داعي للعجلة ولا داعي للعصبية والتوتر، لا داعي لرذيلة الغضب، فهي أساس الشرور، بشر إذا لم تتأمل ما وراء السلوك لن تفهم حقيقة الثقافة والمحرك الذي يسوقهم في هذه الحياة ووسط خضاتها التي لا يمكن احتمالها بغير هذه الثقافة!

منذ الوهلة الأولى التي تقطع فيها شوارع بانكوك تعرف صلة المدينة بأشهر آلهة سكان الشرق الأقصى «بوذا»، فتمثاله يتوزع في كل شارع وركن وأمام أشهر المقاهي وفي بهو أفخم الفنادق، مزركشًا بكل ألوان الطيف ومحاطًا في بيته المهيب بأجمل الزهور، أمامه أطعمة مختلفة مما يتناوله سكان المدينة، حيث يعتقدون أن أرواح الموتى تنزل مساء لتنال بركة الطعام أما الآلهة فتتنزل مساء لتباركه وتتقبله.

في كل مرة أزور فيها هذه المدينة الشرقية أتذكر ذلك الأستاذ الأمريكي الذي ترك أمريكا وجامعته وحياته هناك وسافر إلى الشرق باحثًا عن دفء الناس والعلاقات وحقيقة الحب.

يلفت نظري أمران في بانكوك، دماثة الناس وتماثيل بوذا أو الإله إندرا، مبجلًا ومحتفى به وبوروده وطعامه وأساطيره، لا أحد يمر ساخرًا أو محاولًا العبث أو المساس بهيبة الإله، الدين والملك لهما مكانة رفيعة جدًّا، سألت فتاة كانت تعتني بنظافة تمثال الإله المنصوب قريبًا من الفندق الذي كنت أقيم فيه، عن سر الأطعمة الموجودة أمامه، فقالت إن الفندق يوفرها له وإنها تبقى حتى تتنزل روح الإله ليلًا لتأخذها، جادلتها بأن الآلهة لا تأكل ولا تنتظر طعامها من البشر فابتسمت قائلة: أنا أؤمن بأنها تفعل! ربما كان المقصود من فعل الأخذ في حديث الفتاة إسباغ البركة وتقبل الصدقة أو الهدية!

في محل الصرافة شاكست فتاة أخرى عن صورة الشاب الوسيم المعلقة أعلى رأسها، وكنت أعلم بأنها صورة الملك، قالت هي للملك، قلت لها لكن ما أعرفه أن الملك عجوز وليس شابًّا، ابتسمت وقالت هذه صورته منذ 40 عامًا، سألتها كيف يبدو الآن؟ أخرجت ورقة نقدية من فئة الخمسين بات (عملة مملكة تايلاند) وقالت: هذا هو! ثم أشاحت بوجهها كمن لا يريد أن يناقش فكرة شيخوخة الملك أو فنائه! خرجت سريعًا من المحل خوفًا من ردة فعل غير متوقعة، مع علمي بمدى تأدب هذا الشعب، أيقنت أنه كما لا يجب أن تسأل المرأة عن عمرها،
فلا تسأل بعض الشعوب عن ملوكهم ولا عن آلهتهم!

أرصفة الفقراء والحياة!

وأنت تعبر فضاء الشارع في حي «سوكومفيت» تعرف للوهلة الأولى أنه حي العرب بامتياز، اليافطات التجارية أسماء المحلات، الرجال كبار السن الذين يتمشون بثيابهم العربية، البائعون والبائعات ينادونك باللغة العربية ويلقون عليك السلام، لا يمكنك أن تفتقد شيئًا هنا مما تود أن تراه أو تتناوله: الفلافل، التبولة، الخبز اللبناني، المندي اليمني، المسقوف العراقي... كل شيء.. ودكاكين المساج المفتوحة على فضاء الشارع!

تتوالى عليك عشرات الصور ومئات التفاصيل، وفي حيز صغير جدًّا
لا يتعدى عشرة أمتار يمكنك أن تجد ثلاثة مطاعم وعربة بيع فاكهة وحشدًا من النساء المتسكعات وامرأة تقوم بعمل مساج لامرأة أخرى وعلى الرصيف مباشرة، بينما عدد من الرجال والنساء يتناولون الأرز من قصعات صغيرة بأعواد خشبية على الطريقة المتعارف عليها في شرق آسيا، أما تلك المرأة فتفتتح مطعمًا بكامل معداته: أدوات الطهي، الفرن وأنبوبة الغاز، وطاولتان وستة

كراسي،
ولا شيء آخر، وجرّب أن تجد مكانًا في هذا المطعم الذي لا يكاد يخلو من الزبائن، زبائن الشارع الدائمين.

لا تستغرب إذا وجدت خياطًا بكامل أدوات محل الخياطة يمارس مهنته على الرصيف، طاولة عليها ماكينة الخياطة وكرسي يجلس عليه وطاولة خشبية خلف ظهره وقد راكم عليها طلبات الزبائن، وبينما يجلس هو بلا مبالاة في منتصف الرصيف فإن الناس يمرون على أدواته جيئة وذهابًا دون أن يفكر في أن يرفع رأسه ليطل على ما يجري حوله، إنه منهمك في إتمام بنطلون ذلك الزبون المنتظر بالقرب منه!!

تساءلت هل يستلزم افتتاح محل خياطة رخصة من بلدية بانكوك يا ترى؟ لكن ماذا توفر له البلدية من خدمات ليدفع لها ضريبة استصدار رخصة تجارية؟
لا شيء، إنه يعمل على ضوء الشمس، فلا تسهيلات ولا خدمات على الإطلاق والحياة على طريقة «عش كما تيسّر» هكذا يعيش الناس في أحياء الفقر هنا في تايلاند البلد الذي حين سألت الطبيب عن معنى اسمه قال بأنه يعني أرض الحرية، أما بانكوك فهو اسم جديد للعاصمة التي يعني اسمها مدينة الملائكة، تمامًا مثل لوس أنجلوس الأميركية، وبدون أن أدري وجدتني أبتسم عند سماعي لمعنى الاسم خاصة، وأنا أتذكر صورًا كثيرة عبرت عليها في تلك المدينة وليس بينها وبين الملائكة أدنى صلة على الإطلاق!!

إذا تنقلت في أرجاء المدينة فإنك ستلحظ مناطق التسوق الراقية جدًّا والأحياء التي تشع ببريق الثراء والنظافة، حيث النساء بشفافية أوراق الورد وحيث الرجال في كامل أناقتهم يتوزعون بين مهن غاية في الرقي تتراوح بين الطبيب والتاجر والبائع في محل عريق والمهندس وغيرهم.... إنها مدينة الملائكة كما يعتقد أهلها، وقد تصدق ذلك وأنت تضع رجلًا على رجل في أحد الفنادق الفخمة أو في أحد مقاهي ستاربكس الفارهة، لكنك لن تصدق المعنى وأنت تسير في أسواق الليل أو في أحشاء المدينة بعد هبوط الظلام، أما تفسير اسم تايلاند على أنها أرض الحرية فسيروقك ولكن بحسب ما يمكن أن يأخذك إليه التفسير، ففي هذا البلد أنت حر في أن تفعل ما تشاء طالما لم تعتد على أحد، من هذا المنطلق منعتني صديقتي من إبداء أي انطباع بالاستياء تجاه تلك البائعة الأنيقة جدًّا ذات الثياب الشديدة البهاء والإكسسوارات الملونة، حين دخلنا لنتبضع من محلها فقد اتضح لي بعد خمس دقائق من دخول المحل بأنه بائع وليس.... بائعة!!

وبرغم كل مشاهد الفقر والبؤس وانعدام أبسط مبادئ النظافة، إلا أن بانكوك مدينة تستهوي الكثيرين من العرب - لم تستهوني على الإطلاق - وأجد بأن مرد ذلك يعود إلى مزاج المدينة ورخص أسعارها وتوافر الكثير من الخدمات الصغيرة والمختلفة والهامة للكثير، وتلك الشرقية أو الحميمية التي تمتاز بها مدن الشرق القديمة والفقيرة والمكتظة عادة مثل القاهرة ودمشق وبومباي، دون أن يعني ذلك إضفاء أي طهرية على المدينة، فبانكوك ليست مدينة ملائكة بالتأكيد، لكنها مدينة حياة مختلفة وحافلة بالتفاصيل والألوان لمحبي التفاصيل والألوان!!

أسئلة سائح!

قلت لفتاة المقهى، حيث أسكن بأنني أكتب في الصحافة وبأنني مهتمة بموضوع العقائد والأديان، فأبدت دهشتها على طريقة شعوب شرق آسيا الذين يندهشون حيال كل شيء جديد عليهم. ما كان يلفتني هو تماثيل بوذا المنتشرة في كل ركن من شوارع وأزقة المدينة، وتلك الأطعمة والمشروبات التي توضع أمامه، ماذا تعني؟ سألت الفتاة. فقالت أظنها توضع قرابين لبوذا ليتقبلها كصدقة تشفع لأرواح الموتى!

جذر الدين واحد، هذا هو الدرس الأول الذي استخلصته سريعًا، كانت الفتاة تتحدث عن روح جدتها التي تأتي لتأخذ هذا الطعام، كانت تقصد أن أجر الطعام يصل إليها، كانت تريد أن تقول ذلك ولكن على طريقة اعتقادها وتجسدها للفكرة.

في محل لبيع التحف سألت رجلًا كان يحمل الأطعمة إلى حيث التمثال لماذا يفعل ذلك، قال لي إن هذه الأطعمة توضع للإله بوذا، حين سألته ماذا يفعل بها بوذا؟ قال تأخذها روحه في المساء!

ربما كان يقصد يباركها أو يتقبلها برضى، سألته بشكل مباشر وربما فج أيضًا، هل تؤمن بذلك؟ إجابته كانت قاطعة: نعم أؤمن. والمعروف أنه من باب اللباقة ألا تسأل شخصًا في ثوابته الدينية إذا كنت مختلفًا معه في هذه الثوابت، خاصة إذا كنت غريبًا في بلد ما، لكن فضول الكاتب يكسر بعض القواعد أحيانًا!!

في محل لبيع المستلزمات الرياضية، دخلت لشراء بعض الأحذية التي لفتتني ألوانها الزاهية، وعندي فإن مدن الشرق واقعة في هوى اللون لأنها مصنوعة منه ومعجونة به وهي من اخترعت الألوان حتمًا، وجدت تمثال بوذا في قلب المحل، سألت البائع لماذا هذه الأطعمة، أجاب لتجلب لي الحظ، فعرفت أن العبادة واحدة، وأننا جميعًا نحمل الله في داخلنا ونتوجه إليه بذات العمل، لكن لكل منا غاية مختلفة! فحين سألت فتاة المقهى: هل تؤمنين بأن بوذا يستجيب لك قالت: لست متأكدة من وجوده أصلًا، أنا أؤمن به قليلًا، لكنني أؤمن بنفسي أكثر، فأنا من يجب أن يسعى ويكد ويجتهد ليعيش ويحصل على رزقه والقليل هو ما أتركه للسماء!

قالت: نحن نسأل ونؤمن بعقولنا، جدتي ربما سيكون لديها إجابات مختلفة لأنها مؤمنة بلا سؤال. هذا هو الفرق كما قالت!

في الحقيقة، هذا هو الفرق بين الأجيال الجديدة في كل مكان والأجيال التي سبقتها، ولذلك فعلينا أن نمدهم بإجابات مقنعة وبمنظومة تعليم ترقى إلى مستوى تفكيرهم!

بوذا يجلب الحظ، بوذا يتقبل الصدقات، بوذا يبارك طعام الموتى، المهم أن لبوذا معابد ضخمة في مدن الشرق الأقصى، ومن طبائع أهل هذه المدن أنهم لا يقتلون الحشرات والحيوانات السائبة، قد تجد بعض الباعة يعرضون على عربات الأطعمة الجاهزة حشرات مقلية من كل شكل ولون:

صراصير، ديدان، خنافس، عقارب، وتستغرب وربما يصيبك الغثيان إذ تراهم يرمون بتلك الكمية من الديدان في الزيت أو تلك الصراصير، وتستغرب أكثر وتنقلب معدتك رأسًا على عقب حين يتوقف أحدهم ليشير إلى نوع من الحشرات على العربة، يضعه له البائع في قرطاسة تشبة قراطيس (اللب) في مصر، يدفع الثمن ويمضي يتسلى بما بين يديه!

مع ذلك فهم لا يقتلون الفئران والصراصير والسحالي، ولا يؤذون القطط والكلاب خاصة إذا تواجدت قربًا من معابد بوذا، لذلك فحين ذهبت سيدة أعرفها مع صديقتها من سكان تلك البلاد إلى (المعلم) الروحاني الذي تتلقى منه التعاليم وتؤمن بمعجزاته، قالت بأنها لم تستطع احتمال الرائحة النتنة للحيوانات والحشرات التي يغص بها المكان.

جلست تلك المرأة الصينية بين يدي المعلم راكعة ومقرفصة على ركبتيها، قدمت الهدايا والقرابين، وجلست، لم يسألهما لكنه أشار للسيدة التي جاءت تتعالج وقال لتلميذته الصينية هذه المرأة ستتعافى من مرضها العضال، لكنني وأنا أكلمك وهي تنظر إليّ أعلم أنها لا تؤمن ولا تصدق ما أقول، دينها يمنعها من ذلك، كانت تلك السيدة شقيقتي.

(8) فلورنسا.. مدينة النهضة

تحت شمس توسكانيا، فيلم سينمائي رومانسي أنتجته هوليوود العام 2003 وقامت بدور البطولة فيه بجدارة النجمة الأميركية دايان لين، صور الفيلم في منطقة توسكانيا بإيطاليا ووضع يده على تفاصيل إنسانية في غاية الحميمية والأهمية معًا، تعود حكاية الفيلم إلى أزمة عاطفية تمر بها كاتبة شهيرة هي فرانسيس (دايان لين) بسبب خيانة زوجها غير المتوقعة لها بعد قصة حب وزواج ناجحين، لكنها حين تكتشف خيانته بشكل مفاجئ وصادم تقرر الانفصال من دون نقاش كما تعمل سريعًا على إنهاء كل الإجراءات القانونية ومن ثم تطير بعيدًا عن سان فرانسيسكو فيما يبدو أنه محاولة لتجاوز الأزمة بالابتعاد والنسيان. في توسكانيا بإيطاليا، تقرر وبشكل غير متوقع أن تشتري فيلا قديمة تعود إلى عائلة إيطالية عريقة، وبكل المال الذي لديها ووسط استغراب صديقاتها في سان فرانسيسكو حين أخبرتهم بذلك، لكنها كانت تسير باتجاه امتلاك الفيلا كمن يسير باتجاه قدره، وبالفعل مثل شراء فيلا بهذا الحجم وبهذا القدم دلالة رمزية على محاولة الانفصال العاطفي والجسدي عن حياة وتاريخ معين والدخول إلى حياة وبناء ذاكرة جديدة تمامًا.

بدأت (فرانسيس) تكتب ذاكرتها الجديدة بترميم الفيلا الملأى بمئات النسخ المكومة من إحدى الجرائد، وبعشرة آلاف زجاجة فارغة وبمختلف أنواع الحشرات والأعطال، كانت بحاجة مثل كثيرين منا لأن تنغمس في مشروع ترميم حياة أخرى لتعبر جسر الأزمة إلى ما ورائها بسلام من دون الاضطرار للوقوع في شرك الاكتئاب، أو الحزن أو التلذذ بالنوستالجيا المرضية (الحنين للماضي)!! ومع ترميم الفيلا تكونت الصداقات تباعًا من خلال مجموعة الشغيلة الذين يعملون في المنزل وفي الحديقة، وفيما بين هؤلاء نشأت قصة حب بين شاب بولندي صغير وفتاة إيطالية تنتمي لعائلة متزمتة رفضت العلاقة بين الشابين، ثم عادت وغيرت رأيها بسبب تدخل الكاتبة، وتوجت العلاقات بقدوم صديقتها الأميركية من سان فرانسيسكو وهي في بداية أشهر الحمل. حينما اشترت الكاتبة فيلتها في مكان غريب بعيد جدًّا عن وطنها، راودتها أحلام الحب والعائلة، أن تقيم عرسًا في الفيلا وتشهد ولادة أطفال، وعائلة، هكذا أسرت للرجل الذي أتمّ لها صفقة شراء المنزل الذي قال لها سيحدث هذا الذي تتمنينه طالما أنك مصممة على أمنياتك، يومها ابتسمت كمن يقول للرجل: أعلم أنك تجاملني وأعلم أنني لن أشهد ذلك كله لكنني أشكرك على أية حال، وبعد شهور طويلة ولد صبي جميل هو ابن صديقتها وأقيم احتفال بالمناسبة، وبعده بأيام شهد المنزل حفل زفاف الشاب البولندي على الحسناء الإيطالية وسط احتفال بهيج!!

بين ممرات الحديقة الواسعة جاء ناقد أميركي ليقف أمام الكاتبة قائلًا: لقد بحثت عنك طويلًا لأجدك هنا، لقد كنت أقوم بدراسة نقدية لكتبك لكنني اليوم أعلن لك إعجابي الشديد بشخصك، تساءلت: أيمكن أن يأتي من آخر الدنيا ليقول ذلك بعد أن بحث عنها طويلًا؟ كان واضحًا أن قصة حب جديدة ستعيشها البطلة في مقبلات الأيام، كما كان واضحًا أن الذاكرة الجديدة التي غرستها في توسكانيا بشراء الفيلا قد بدأت تمد جذورًا وأغصانًا عالية. نحتاج أحيانًا لبناء ذاكرة جديدة بعزم وإيمان بأننا

نستحق الحياة وليس الموت أو النسيان والصدأ لأن شخصًا ارتكب بحقنا حماقة الغدر وإثم الخيانة.. في الحياة فرص أخرى دائمًا ونحن من نبني فرصنا وحياتنا وليس أحد سوانا!!

في العام 2018، كنت أستقل القطار من روما باتجاه فلورنسا، عاصمة إقليم توسكانيا البديع، اخضرار بلا نهاية، وبيوت تلوح بأسقفها القرميدية بانتظام مغر، كانت المناظر الخلابة تعبر سريعًا أمام عيني بسبب المرور السريع للقطار، عندها اجتاحتني ذكرى ذلك الفيلم، وتذكرت تلك اللقطات المفتوحة التي أتاحتها لنا عدسة المخرج الرائع لنمتلئ بجمال حقول توسكانيا الخضراء، ولنبيت في دواخلنا نية الذهاب إليها يومًا، قلت لنفسي أخيرًا، أنا تحت سماء توسكانيا باتجاه معقل النهضة الأول فلورنسا، موطن مايكل أنجلو، دافنشي، غاليليو، بوتشيني.

(9) ميونخ.. أوراق رحلة قديمة!

عثرت بطريق المصادفة على أوراق قديمة، في حقيبة منسية من حقائب السفر القديمة التي لم أفتحها منذ زمن بعيد، كانت أوراقًا ملفوفة كمخطوط صغير أخذني بعيدًا جدًّا حين أخذت أقرأ ما فيه، كان مكتوبًا بخط اليد يوم كنا لا نزال نستخدم أصابعنا والأوراق المخططة للكتابة، كانت الأوراق تضج برائحة لطيفة وإن بدت خفيفة جدًّا، وبكثير من ذاكرة السفر والمقاهي والمدن البعيدة.

الورقة الأولى:

«...في صباحات الشتاء، حين تصحو على وجه مدينة لطالما داعبت مخيلتك، تحتلك بالتأكيد فكرة تأمل وجوه العابرين في تلك الشوارع الباردة، فتنساق وراء فكرتك، ترتدي ثيابك بتمهل، تطل كل لحظة من نافذة غرفتك المطلة على فضاء الساحة فيبدو لك المشهد مغريًا بتأمله من أوله لآخره، من أول الصباح حتى نهاية اليوم، من مطلع الشارع حتى نهايته، حيث محطة القطارات وجموع البشر المندفعين في أحشائها والخارجين منها إلى هواء مدينة أخرى، الجلوس بلا عمل، باسترخاء كامل متعة في هذه المدن، أنت فقط في مهمة متابعة المارة، تتأمل تفاصيل ثيابهم، حقائبهم، أحذيتهم، ثم فجأة تجد نفسك تعدهم، واحد، اثنان، عشرة، خمسة وعشرون، مائة وأربعون.... تتذكر فجأة أنك تقف أحيانًا قرب مسجد الحي أو المركز التجاري التابع للمنطقة التي تسكنها، فلا يكاد يعبر أمامك أحد، تقول لنفسك إذا فكرت أن أكتب عملًا روائيًّا فلا شك أنني سأواجه مشكلة في انعدام المشهد وكثافة التفاصيل، ثم تعود فتقول مجددًا: «ذلك ليس مهمًّا الآن لأفكر في المشهد الذي أمامي»!

الورقة الثانية:

مع افتتاح أول مقاهي الشارع المواجه للفندق الذي أسكنه وفي فضاء ذلك المقهى الذي يحمل اسم (الأصحاب) أجلس باسترخاء، مع عدد من عشاق قهوة الفجر، أتدثر بمعطفي وبوحدتي وبالرائحة اللذيذة وببصيص أضواء أعمدة الشارع التي تنطفئ تدريجيًّا مفسحة المجال لنور الشمس، إلا أن كتل الغيوم هذا النهار لا توحي بيوم مشمس على الإطلاق، إنه يوم بارد جدًّا ومحمّل برائحة الثلج، تتساقط ندفه ببطء أمامي، يتصايح الأطفال العابرون ويجرون خلف تلك الندف المتطايرة، أبتسم لهطول الثلج فذلك مشهد قلما تحظى بها، عما قليل سيمحو البياض تفاصيل المكان، سيتغير لون الشارع، وسيصبح قرميد المباني مختلفًا، أما مقاعد الطريق فستصبح غير قابلة للجلوس، أرتجف بردًا وأكاد أدخل في فنجان القهوة الذي بين يدي بحثًا عن دفء.. خالية من كل خوف أو قلق أو ملل، أنزلق إلى جوف المقهى لجوءًا إلى فنجان قهوة آخر!

الورقة الثالثة (فينيس أو البندقية الخارجة من الماء كحلم):

أتذكرني وأنا في قطار العودة عائدة من فينيس ليلًا أطل بوجل الوحدة من زجاج نافذة القطار المعتمة، يباغتني البياض المتوهج في الخارج محتلًّا السفوح، قمم الأشجار والأغصان، ومتسربًا من

مكان ما إلى أرضية القطار! يفاجئني رجل نبيل بترك مقصورته لي مختفيًا في أحشاء القطار الضخم.

الورقة الرابعة (محطة القطارات الرئيسية) ميونخ فجرًا:

بوجل يهز جسدي أدخل في ممرات خالية وصامتة في محطة القطارات الرئيسية أبحث عن الصندوق الذي أودعت فيه حقائبي قبل مغادرتي المدينة إلى فيرونا، عثرت على الصندوق بسهولة وضعت الأجرة المستحقة وأدرت المفتاح، أخرجت حقيبتي وأسرعت خارجة إلى هواء الشارع، أجرجر حقيبتي محدثة جلبة في ذلك الفجر المتجمد، قاطعة الشارع من المحطة إلى حيث أقيم، كان الفندق قريبًا لكنني تعثرت بكثير من السكارى والمشردين النائمين على أسفلت الشارع تحت الأبنية الضخمة، تقصدت اختيار هذا الفندق لأنني لا أريد أن أركب سيارة أجرة في هذا الليل الملتبس، تذكرت تلك العجوز المتهالكة، وهي تجرجر حقيبة سفر كبيرة فجر سفري إلى فيرونا، كانت هي الأخرى تحدث جلبة هائلة وهي متجهة صوب محطة القطارات، كانت منهكة ووحيدة وراجفة مثلي الآن، تقاسمت معها الإفطار الباكر في مقهى المحطة وبعض الوحدة وسافرنا في القطار نفسه.. كل في طريق، أنا إلى فيرونا، وهي لا أدري إلى أين!!

صباحات مختلفة، مبللة بصور المدن الباردة ورائحة فناجين القهوة ووجوه البشر وضجيج محطات القطارات ومشاريع السفر، حكايات الصباح والرحيل والوداع والوقوف عند التفاصيل والكثير من المشاهد، تلك روايات تكتب وحكايات تقال وكثير منها يختبئ.. في المخطوطات أو هناك في أغوار القلب!

فيرونا مدينة تقع في الجزء الشمالي من إيطاليا، يبلغ عدد سكانها ما لا يزيد كثيرًا على ربع مليون نسمة. يزورها سنويًّا مئات الآلاف من السياح، كثير منهم أجانب لغناها الفني ومناسباتها السنوية المتنوعة، مثل موسم الأوبرا. وضعتها منظمة اليونسكو ضمن مواقع التراث العالمي لكثرة معالمها التاريخية الهامة بها وتعود أهمية المدينة التاريخية والاقتصادية لموقعها الجغرافي وغناها المائي. ومن بين أشهر المعالم في المدينة أرينا فيرونا ومنزل جولييت، ففي فناء المنزل يوجد تمثال من البرونز لجولييت، كما تعتبر شرفتها الخشبية الشهيرة التي كانت مسرح لقاءاتها الخاطفة بروميو مزارًا لملايين العشاق الذين يدفعون رسمًا مقابل الدخول والتقاط الصور من تلك النافذة الشهيرة، أما جدران المنزل وبوابته فمغطاة بآلاف القصاصات التي يضعها المغرمون بعد أن يكتبوا أمنياتهم أو أسماء محبوباتهم.

ميونخ التي أعرفها جيدًا:

زرت ميونخ للمرة الأولى صيف عام 1999، بعدها وخلال أكثر من 15 عامًا، زرت هذه المدينة مرارًا وتكرارًا، وبينما فرقت الأيام وظروف العمل بين صديقات السفر والرحلات بعد أن كبرن وتغيرن ودارت بهن الحياة دورتها الطبيعية، فإن ميونخ وفي كل مرة أذهب إليها أجدها كما هي، محطة القطارات الرئيسية، مطاعم الأندرجراوند، عربات بيع الفاكهة في ساحة المارين بلاتز،

المقاهي أين يصعب أن تجد مكانًا فارغًا أيام الصيف التي تشهد فيها المدينة ازدحامًا مشهودًا بالنسبة إلى أعداد الزوار الذين يفدون إلى ميونخ، برج الكنيسة الضخم، أسماء المحال الكبرى، محال الموضة الراقية في شارع ماكسيميليان، ازدحام المارين بلاتز الدائم، المطر الذي لا ينقطع، كل شيء في ميونخ في مكانه كأنك تركته مساء البارحة فلا شيء يتغير هنا.

يوم انقلب العالم رأسًا على عقب، إثر تفجيرات نيويورك في سبتمبر من العام 2001 كنت هناك بصحبة والدتي في رحلة علاج طالت بعض الشيء، يومها امتلأت نفوس الناس بالخوف، وزادت وتيرة التحذيرات، وطفحت وسائل الإعلام الألمانية بصور أسامة بن لادن، وبالموقف من الإسلام والمسلمين، لكن شيئًا واحدًا لم يتغير، هدوء ميونخ وأمانها وسلاسة الحياة والحركة في كل مكان فيها، حتى هذا الذعر الذي يسيطر على الناس والحكومات اليوم إثر العمليات الإرهابية لم يكن له أي أثر في تلك الأيام فميونخ واحدة من أكثر مدن العالم أمانًا!

بعد زيارتي الأولى تلك زرت ميونخ مرارًا وتكرارًا، للعلاج، ولقضاء إجازات ممتعة، وللانطلاق منها لمدن أخرى، لقد ظل الأمان صفتها الملازمة، حتى حين كان البعض يتحدث عن تعصب الألمان وجديتهم وصرامتهم، كنت أتذكر أنني لم أُسْرَق يومًا هناك، وعندما نسيت كتابًا كنت أقرؤه في أحد المقاهي وجدته مرسلًا إليّ عبر عنوان المكتب الصحفي للإمارات الذي كان مسجلًا داخل الكتاب، كنت أنظر للجانب الإيجابي الذي تركته الصرامة والجدية على سلوكيات الإنسان والمجتمع الألماني.

إن الدقة والجدية هي ما أوجد ألمانيا وحافظ عليها، وجعلها أيقونة للصناعة المتقدمة والمتقنة وللحرفية الفائقة وللنظام والشفافية، لقد مر هذا البلد بتطورات تاريخية زلزلت الناس ووضعتهم أمام خيارات وجودية قاسية جدًّا، خاصة في تلك اللحظة التي هزمت فيها ألمانيا، ولم يبق في معظم مدنها حجر على حجر، وحدها قوة القيم الألمانية وصلابة الإنسان ومشروعات الإعمار الهائلة هي ما نهض بألمانيا من رمادها، لتقف اليوم على قمة اقتصادات العالم.

لقد أحببت كل شيء في ميونخ، وحين وقف ذلك المعتوه يصوب رصاص مسدسه على الناس في الشارع، شعرت بالصدمة وبحزن شديد، لأنني أعرف ذلك المكان جيدًا، فلطالما مررت به، وهالني منظر الناس وهم يركضون بهلع بحثًا عن ملجأ من رصاص مجنون لا يعرف معنى وقيمة الأمان، كما تعرفها شعوب دفعت ملايين الضحايا لتصل إلى أمانها الحالي، ولتتشارك ثمار هذا الأمان مع الجميع.

(10) بادن بادن.. مدينة الحمامات

تقول المعلومات أن بادن بادن بلدة ألمانية تعد من أشهر المنتجعات الصحية في العالم، تقع في الشمال الغربي من الغابة السوداء في ألمانيا. وبحسب إحصاء عام 2006 فإن عدد سكانها لا يتجاوز 54.855 نسمة. تعتبر بحق من أجمل المدن السياحية الألمانية، وتشتهر بمياهها المعدنية التي تأخذ المدينة اسمها منها فبادن بادن تعني مدينة الحمامات أو الينابيع. وقد استخدم الرومان هذه الينابيع قبل ألفي عام تقريبًا، وحين تتنزه فيها بقطار الغابة السوداء يشير لك المرشد السياحي إلى وجود آثار حمام روماني قديم.

قدمت إلى هذه المدينة من هايدلبرج الألمانية، مدينة صغيرة تستولي على حواسك ومشاعرك، لم تكن مسافة الطريق التي قطعتها طويلة بالكاد ساعة وإذا بي في بادن بادن، كنت قد أعددت لرحلتي مسبقًا وحسبت المسافات بين المدن بدقة حتى لا أمضي الوقت على الطرقات، خاصة وأن منطقة الغابة السوداء التي تقع في نطاقها هذه المدن متقلبة إذ سرعان ما ينهمر المطر غزيرًا حاجبًا عنك الرؤية على طرقات طويلة ويكون الأمر مزعجًا إذا ما أظلمت السماء بشكل مفاجئ.

عرفت طريقي للفندق جيدًا، كانت المدينة هادئة لا أثر لأي زحام على الإطلاق، الفندق جميل تحفّه غابات ونهر جار تقع عليه أعداد من المقاهي، يتوسط المدينة ويقارب معظم النقاط التي يحتاجها أي زائر غريب.

واجهة الفندق الزجاجية تتيح لي بسهولة أن أتأمل المعالم المقابلة: المسرح، المبنى الروماني الذي يضم مكتب المعلومات، دار الأوركسترا، الحديقة، وأشياء كثيرة تستحق القيام بنزهات للتمتع بها.

قالت لي جارتي على طاولة الإفطار المحاذية في مطعم الفندق الذي نسكن فيه معًا: «اذهبي إلى هناك»، وأشارت بيدها إلى ساحة المهرجان المقابلة للفندق، «صدقيني ستقضين وقتًا ممتعًا، ذهبت مع عائلتي وقضينا وقتًا جميلًا بالأمس». ابتسمت لها، واتفقت مع من معي على الذهاب إلى «هناك» حيث الكثير من البهجة، في المساء كانت الموسيقى تضج من جنبات مسرح «بادن بادن»، والحديقة تعج بالمئات، وتحلقت أعداد كبيرة حول طاولات طعام أعدت لهذا الغرض، كان الألمان يتحدثون ويأكلون بالصرامة نفسها التي لا تفارقهم أبدًا، صاحت واحدة من صديقاتي: أين البهجة التي تحدثت عنها تلك المرأة؟ لا شيء سوى الطعام والموسيقى الصاخبة أنا لا أشعر برغبة في البقاء هنا! ابتسمت وقررنا إكمال نزهتنا وعدم التوقف طويلًا عند نقطة (البهجة) التي نصحتنا بها تلك المرأة! فكرت بأن البهجة في داخلنا من الأساس قبل أن تكون في الخارج، لكنني لم أرد أن أجادل صديقتي هناك من يتخذ قراره سريعًا ويمضي.

في أماكن مختلفة من المدينة كانت هناك مقاهٍ أنيقة جدًّا، ورجال ونساء يبدو البذخ واضحًا عليهم، وسيارات البورشه والمرسيدس تلمع من بعيد كنجوم مضيئة، الكل يتحدث همسًا، يأكلون اللحم

والبطاطا ويحتسون النبيذ، وبالكاد يبتسمون، هذه أيضًا حالة بهجة بالنسبة إليهم قد لا تعني لصديقتي أي شيء!

وحين مررنا بضجيج صاخب أمام أحد تلك المقاهي رمقنا أحدهم باستهجان، فأعادت صديقتي طرح السؤال نفسه: أين البهجة التي قالت تلك المرأة إننا سنجدها «هناك»؟ قلت لها: «كل يرى البهجة بطريقته»!

أعاد ذلك كله لذاكرتي مشهدًا لم أنسه يومًا في فيلم (طعام، صلاة، حب) لجوليا روبرتس، والمأخوذ عن رواية بالاسم نفسه للكاتبة الأميركية إليزابيث جيلبرت، كان الحلاق الإيطالي يحاول إقناع جوليا بأن الأميركان لا يعرفون كيف يعيشون الحياة ببهجة، إنهم يعملون ويجمعون كثيرًا من المال ليقضوا نهاية الأسبوع يأكلون وجبة هامبورجر أمام التلفزيون بمنتهى الكسل، بينما يعيش الإيطاليون الحياة بأقل القليل، لكن كما يجب، يأكلون جيدًا ويتحدثون بصوت عال ويستخدمون أيديهم للتعبير عن فرحهم وغضبهم وبشكل مبالغ فيه أحيانًا لكنهم سعيدون بذلك، هم يحركون أيديهم في الهواء بشكل لافت إذا غضبوا وإذا غازلوا امرأة في الشارع وإذا استاؤوا من أحدهم وإذا سخروا من امرأة بدينة تمر بقربهم!

لذلك تقول الكاتبة إنها حين قررت أن تعالج نفسها من أزمة ما بعد الطلاق، عادت لأمنياتها الصغيرة التي لطالما تمنتها وظلت تؤجلها، لكنها وهي تعبر أزمة الطلاق وتقع في حب سريع – سرعان ما فشل - بعد انفصالها عن زوجها، لمعت إيطاليا في ذاكرتها، فقررت أن تبدأ في تعلم اللغة الإيطالية التي تشبه الحياة تمامًا، أو تشبه زقزقة العصافير كما وصفتها، كانت على يقين من أن صديقاتها وأقاربها سيسخرون منها وسيسألونها ألف مرة لماذا تحتاج لتعلم الإيطالية الآن وفي هذا العمر؟ لكنها قررت أن تصم أذنيها وتمضي، لقد قررت أن تحقق أمنية خاصة بها وما عاد يعنيها كلام الجميع وسخرياتهم، فنحن نفعل بعض الأشياء دون حاجة لتبرير ذلك لأحد، نحن نفعلها لأننا نريد أن نفعلها وكفى!

«البهجة» مرة أخرى، كيف نعيش البهجة؟ أو كيف نحدد البهجة؟ من بإمكانه أن يحسم هذا الخلاف القديم حول نوع ومقدار وطريقة التعبير المثلى عن السعادة أو البهجة؟ إن الألماني الذي لم يعتد الضحك ويعتبر شخصًا غير ودود بشكل عام وصارم الملامح والسلوك ينظر للبهجة بطريقته، إجازة في مكان راق، طعام فاخر، نبيذ معتق، وسيارة فاخرة، بينما يعيش الفرنسي بهجته بتفاصيل مختلفة وربما نزقة، بينما لا يكف الإيطالي عن الضحك وتناول أصناف شتى من الطعام الإيطالي اللذيذ بصحبة عدد كبير من الأصدقاء وبنظام مشاركة الطعام، أما العربي والياباني والهندي والصيني و...و.. فلكل طريقته في التمتع بالبهجة والوصول للسعادة، ما يعني أن البهجة ليست «هناك»، ولكنها أسلوب حياة وثقافة وتفكير وليست «كتالوجًا» جاهزًا!

جاري الوحيد في المدينة:

بينما كنت أتأمل الجمال الممتد أمام ناظري، أحسست بي كأنني في حلم، فقد كان كل شيء ملونًا كدفاتر حكايات الصغار، كان الأفق الممتد إلى ما لا نهاية له شديد البهاء والاخضرار أما هدير النهر أسفل الفندق والذي بدا لي مزعجًا في هدأة ليل البارحة حتى إنه منعني من النوم لساعة متأخرة، أجده الآن مختلفًا تمامًا، فلا ضوضاء مزعجة، عيناي تمسح المكان في الأسفل فيبدو الشارع حتى نهايته كأنه مغسول للتو، أما زرقة السماء فلا توحي لك إلا بشيء واحد هو أن تفتح ذراعيك وتهم بالطيران!

بدا لي بمفرده ويعاني أزمة ما، كان يدخن بتوتر، كان صوته عميقًا ومتزنًا لكنه لم يكن مرحًا، يتحدث عبر هاتفه النقال مع صديقه أو صديقته ربما، سمعته يقول بإنجليزية واضحة: «هنا كأنك تعيش في الجنة، كل شيء فوق حدود الخيال، كل شيء جميل ومريح.. لكنني وحيد في نهاية المطاف، وهذا وحده كاف ليجعلني لا أرى كل هذا الجمال، ليجعلني حزينًا بما يكفي لكل البشر في العالم، جئت أبحث عن الهدوء وعما يبعث في قلبي البهجة»!!

تساءلت مباشرة وأنا أدخل غرفتي وأغلق زجاج النافذة هذا الرجل وحيد لأن لا أحد معه، أم أن الوحدة في داخله؟ لأن الوحدة حين تسكننا يصعب أن تفسح المجال لأحد أن يشاركها المكان. فحتى البيوت لا تصير بيوتًا إلا بعد أن نسكنها، قبل ذلك حين تكون خالية تكون جدرانًا وزجاجًا وخليطًا من الأسمنت والحديد، يكون مسكنًا للريح والأشباح، نحن من يمنح البيوت صفتها ورائحتها، نحن من يطرد الوحدة ليقيم مكانها الألفة.

ظلت عيناي في ما تبقى من أيام لي في ذلك المكان تتبعان ذلك الرجل الوحيد، يأتي إلى المطعم صباحًا وحده، مهندمًا وأنيقًا، لا تفارقه آلة التصوير أبدًا، يفضل ارتداء الملابس ذات اللون الأبيض أو تلك التي تميل للأزرق كثياب الأطفال الصغار، يصادف أحيانًا أن ألتقيه في مقهى مجاور للفندق وحيدًا أيضًا، أو متسكعًا أمام الحوانيت الصغيرة، هادئًا يتمشى في كل مكان ويلتقط الصور، كان كل شيء في «بادن بادن» يغري بالتصوير، الساحة حيث المقاهي والمطاعم وتلك الفرق الموسيقية البسيطة التي تعزف لرواد المقاهي لقاء القليل من المال، مسرح المدينة.

أيقنت فيما بعد أن الرجل قادم من مشكلة أو أزمة، فكرت أنه ربما فقد حبيبًا أو خسر شيئًا كبيرًا، قلوب الرجال صناديق مغلقة، جاء هنا ليستشفي من وجعه لكن يبدو أن وجعه أكبر من قدرة المدينة على مداواته.

(11) بروكسل.. مدينة من ورد!

أول مرة زرت فيها بلجيكا كان في صيف العام 2003 عندما طلبت مني صديقة عزيزة أن أكون معها في رحلة علاج قضتها في مدينة انتويرب (مدينة الماس، وتمركز اليهود في بلجيكا)، ثم تكررت زياراتي لها أكثر من مرة، سكنت في العاصمة بروكسل، وتنقلت بين مدن جميلة عدة وشديدة الألفة مثل «بروج» التي يشبهونها بفينيسيا لوجود القنوات المائية والتنقل عبر قوارب على طريقة قوارب الجندول التي تشتهر بها مدينة فينيسيا الإيطالية.

تمنحك مدن بلجيكا متعة التنقل بين حوانيتها الصغيرة الممتلئة ببضائع غاية في الرهافة والجمال، وتحديدًا صناعات الدانتيل البلجيكية فائقة الدقة والجمال إضافة للشيكولاتة.

الذين زاروا مدن بلجيكا لا شك ستبقى في ذاكرتهم بعض التفاصيل الفارقة، أولها الشيكولاتة، الدانتيل، وموسم مشاهدة سجادة الزهور أمام قاعة مبنى بلدية المدينة وسط الساحة الرئيسية أيام الثالث والرابع والخامس عشر من شهر أغسطس، تلك السجادة التي رأيت شبابًا وصبايا يرصونها بحرفية عالية مستخدمين ما لا يقل عن 700000 زهرة من كل الأنواع والألوان!

أتذكر بروكسل اليوم والأيام التي قضيتها فيها وأصاب بالحزن الشديد لما تعرضت له، فما زلت أتذكر كم كانت هذه المدينة هادئة ومسالمة وجميلة، كما أنني ما زلت أحتفظ ببعض التذكارات التي اقتنيتها من هناك وبالكثير من الحنين لتلك الحميمية التي كنت أشعر بها وأنا أتوغل في أزقة المنطقة القديمة الضيقة، حيث دخلت بطريق الصدفة إلى مصنع الشيكولاتة الصغير في الساحة القديمة، وحيث المطاعم التي تقدم البابيلا والمأكولات البحرية، ومحلات بيع التذكارات ومشغولات الدانتيل، ومقاهي الأرصفة ومحطة المترو المقابلة لفندق الهيلتون الذي كنت أسكن فيه. أتذكر حي العرب المغاربة هناك، حيث جلست على أحد المقاهي وشربت الشاي المغربي لأول مرة في حياتي!

(12) فينيسيا.. المدينة الخارجة من الماء

كُتب الكثير عن فينيسيا (البندقية)، عن فن عمارتها، عن جندولها، وعن قنواتها المائية العجيبة، وعن تاجرها اليهودي الجشع، كتب شكسبير رائعته الخالدة «تاجر البندقية»، تمامًا كما سبق له أن كتب حكاية العاشقين روميو وجولييت مُخلِّدًا القصة وفيرونا المدينة التي احتضنت الحكاية.

لا تكف فينيسيا عن اختراع حكاياتها وأفكارها، وكلما زارها زائر أو ارتحل عنها سائح عبَّأ مخيلته بأفكار وصور ومشاهد وتمنيات، وظل ينادم المدينة ويسترجع ما شاهده فيها، فتصير فينيسيا فكرة، وتتحول المدينة إلى نص مفتوح على كل الجهات وعلى كل الاحتمالات، كيف لا وهي العائمة على الماء والمطلة على كل الجهات، فلا تعرف وأنت تتسكع في طرقاتها الضيِّقة متى تنتهي اليابسة ومتى يبدأ الماء، وفي الشرق أنت أم في الغرب؟!!

لا بداية لليابسة في فينيسيا، ولا نهاية للماء فيها، وإن أغرب مكان تتصور نفسك فيه هو ذلك الذي لا يابسة له، حيث تبتل أقدامك طيلة الوقت أكثر مما تستقر على الأرض، فلا قصر ولا بيت ولا فندق ولا مطعم إلا والماء جهة أساسية من جهاته، في فينيسيا فقط دون كل الأرض يمكن اعتبار الماء جهة خامسة تنضاف إلى الجهات الأربع!

ليس لدى الفينيسيين مشكلة مع الماء، فحين تسألهم كيف يمكنكم العيش في مدينة شوارعها من الماء ووسيلة التنقل فيها هو المركب، يبادرونك: «فينيسيا مدينة طبيعية جدًّا كل ما في الأمر أننا لا ننتقل بالسيارات» وقد تكون هذه ميزة المدينة وليست عيبًا فيها، وقد تكون هذه الميزة هي السبب في وجود آلاف السياح وملايين الحالمين برؤية مدينة طافية على الماء منذ أكثر من 1500 سنة!!

إذا كنت في إيطاليا فافعل كما يفعل أهلها، وإذا كنت في فينيسيا فلا تفوت فرصة جولة عبر قنوات المدينة بالجندول، تلك فرصة رائعة لتتذوق المدينة وتعرفها على حقيقتها، ولتعرف جموع المشاهير من السياسيين والفنانين والعشاق الذين سكنوها وعشقوها، ولا تزال منازلهم ماثلة على جنبات القنال الكبير شاهدة على عصور من الازدهار والفن عاشتها فينيسيا كواحدة من مدن النهضة الإيطالية في القرون الوسطى، القرون التي شهدت ولادة عباقرة كدافنشي ومايكل أنجلو وغيرهما.

نابليون مرَّ من هنا، وقصره لا يزال ماثلًا يلوح من بعيد، وموتسارت سكن المدينة وأسكنها موسيقاه الحالمة، وكازانوفا نثر فيها نَبْض قلبه ومغامراته، أما اليوم فيسكنها كبار مصممي الأزياء والموضة والطهاة وأيضًا الكثير من المتسكعين، وعازفي موسيقى الطرقات!

تدخل فينيسيا وتخرج منها مسكونًا بالأسئلة نفسها، كيف تعيش مدينة على الماء، وكيف لا يأبه أهلها بكل تقنيات الحداثة وهم أهل الموضة، كيف حافظوا على مدينتهم كما هي، وكيف استطاعوا أن يثبتوها عبر القرون مدينة الماء والرومانسية والسياحة والتجارة والجسور؟ دون أدنى شعور

بالرغبة في تغيير شيء مما كانت عليه منذ 1500 سنة! تلك هي معجزة المدينة وفضيلة أهلها الكبرى!

□ينيسيا مدينة تقع فى شمال إيطاليا، سياحية وأثرية ورومانسية بامتياز، مهددة بالغرق وباختلاط مياه البحر بمجاريها، تتنقل بين قنواتها عبر قارب الجندول الشهير، مدينة إذا زرتها صيفًا فستحظى بأيام لا تنسى، أما إذا زرتها شتاء فستخوض طيلة وقتك في المياه، مياه البحر التي تغرق المدينة حين يزيد منسوبها بسبب الأمطار ومياه الأمطار التي تتدفق طيلة الوقت، لكنك ستحظى بمشهد رائع أمام ساحة سان ماركو وكنيستها الشهيرة، تعرف باسم □ينيسيا و«مدينة المياه» و«مدينة الجسور» و«مدينة النور».

هي جزر متجاورة عددها 117 جزيرة صغيرة يفصل بينها 150 قناة. خلال العصور الوسطى وعصر النهضة، كانت فينيسيا جمهورية مستقلة ومزدهرة تعرف باسم جمهورية □ينيسيا، كما كانت نقطة انطلاق للحروب الصليبية، ومركز تجارة مهم لتجارة الحرير والحبوب والتوابل، كما كانت مركزًا للفن فى القرن الثالث عشر وحتى نهاية القرن السابع عشر.

لعبت دورًا مهمًّا فى تاريخ الفن والموسيقى السمفونية والأوبرالية، ولا عجب فهي مسقط رأس موسيقي عظيم هو أنطونيو □يـ□الدي.

المباني فى مدينة □ينيسيا قديمة جدًّا وجذابة، المباني والقنوات جعلت □ينيسيا واحدة من أشهر المدن في العالم. أما أكثر معالم □ينيسيا شهرة والتي يشير إليها ذلك الشاب الذي يجدف بك في جداولها عبر جندوله الفينيسي الشهير فهي جسر ريالتو وكاتدرائية سان ماركو وقصر رئيس القضاة وجسر التنهدات.

(13) فيرونا.. مدينة جولييت

بعض المدن تكتسب شهرتها من الأساطير والحكايات التي تروجها هي ويتناقلها الناس عنها، حكايات وأساطير لها علاقة بقصص الحب، وأبطال المعارك، والعلماء والمكتشفين، قد يكون لبعض هذه الحكايات جذر يمت للواقع أو الحقيقة وقد لا يكون، لكن الناس تتعلق بالحكايات وتميل لتصديق مبالغات الأسطورة، ربما لأن فيها عوالم تغري بتصديقها والتعلق بها، وربما لأنها تشكل حالة تعويض عما ينقص الناس في واقعهم الذي أصبح خاليًا من البطولات والانتصارات وقصص الحب الفاقعة. ثم ينتهي الأمر في نهاية المطاف بتحول كل ذلك إلى جزء من تاريخ المدن، فمع مرور الوقت تختفي معالم الأمكنة ويختفي أبطال الحكايات ويغيب عشاق القصص، وتصغر بعض المدن ويكبر بعضها الآخر، يتغير كل شيء ووحدها الحكايات تبقى بكل عنفوانها تجتذب الزوار والسياح من كل مكان! فلا عجب أن نرى أشخاصًا يسافرون من بلد إلى آخر لزيارة متحف، أو مشاهدة لوحة خالدة أو تمثال نحته فنان عبقري، أو زيارة منزل شهد علاقة حب بين أشهر العشاق، أو السير فوق جسر ارتبط بأحداث مخيفة مثلًا كالجسر الذي يعرف بجسر التنهدات في مدينة فينيسا، والذي يقال إن المحكومين كانوا يعبرونه في طريقهم من السجن لتنفيذ حكم الإعدام بحقهم!

لا تنتقص الأيام من قوة الأسطورة، بل إنها تكبر وتنتشر مع الزمن وتكتسب قوتها بفعل الكتب والأفلام السينمائية وبفعل الأمكنة التي تروج لها، وهذا ما يجعل الأساطير والحكايات الغرائبية تتحول خبزًا يوميًّا للناس، للكتاب، والشعراء وحتى لصناع السياحة الذين يحولون الحكايات إلى رزق أصيل للمدينة كلها، تقتات عليها وتبني أمجاد سياحتها.

نحن البشر تغرينا الحكايات وتجتذبنا وتروض نزعتنا العقلانية جدًّا، فنصدقها رغم لا معقوليتها، ونتمنى لو كنا نحن أبطالها، وأن الناس يتحدثون عنا بهذا الانبهار كما نتحدث نحن عن هؤلاء الأبطال، هذه الدهشة التي تنتابنا توقظ الطفل في داخلنا، تتنبه جميع حواسنا ونشعر بكثير من المتعة ونحن نستمع إلى التفاصيل، كيف هربت تلك الفتاة من منزل والدها الحاكم؟ لماذا لم يتزوجها ذلك الشاب الذي أحبته؟ كيف أمكنها أن تصل إلى قمة القلعة وتلقي بنفسها من الأعلى؟ ألم ينتبه لها حراس القلعة؟ ألم يخبروا والدها؟ كيف استقبلت والدتها خبر انتحارها؟ وماذا فعل والدها وحبيبها وصديقاتها؟ هل كان على روميو وجولييت أن ينتحرا بالسم لتتخلد حكايتهما؟ ماذا لو لم يتزوجا؟ أي خسارة ستحيق بعائلتيهما؟ لا أحد يملك أي إجابة!

الفضول لا يصنع الأساطير، بل يغذيها. المدن تصنع أساطيرها، تلفها بالحب والبطولة وبكثير من اللا معقول، بينما نصر على طلب تفاصيل التفاصيل لا لشيء إلا لأننا لا نريد للحكاية أن تنتهي كفيلم عربي بائس، لا نريد أن يموت البطل
ولا أن تموت الحبيبة في نهايته، ولا أن يتزوجا بتلك الطريقة البلهاء!

وصلت مدينة فيرونا في وقت مبكر من النهار، قادمة بالقطار من مدينة ميونخ الألمانية، وكنت وصديقتي قد حجزنا فندقًا وسط السوق، وبالفعل نزلنا مباشرة بعد الانتهاء من تسجيل الإقامة

واستلام الغرف إلى ساحة فيرونا، المدينة بسيطة وشديدة الألفة، معظم مبانيها الأثرية قد وضعت تحت إشراف منظمة اليونسكو باعتبارها تراثًا إنسانيًّا غير قابل للمس، تناولنا البيتزا كوجبة غداء، ثم أخذنا في التسكع فمررنا بأكثر دور محلات الموضة العالمية شهرة، وبباعة الأقنعة، حتى انتهى بنا التجوال عند منزل جولييت في أحد الشوارع الجانبية بدا اسم جولييت محفورًا على لوحة معدنية مثبتة فوق بوابة المدخل الخشبية المشرعة للزوار، بمجرد أن تدخل تلاحظ كمًّا هائلًا من أوراق الرسائل الملونة الملصقة على الحائط في مدخل المنزل، ومئات من الشباب والفتيات آخذين في كتابة الرسائل ودسها في فتحات الحائط الحجري القديم، الفناء ضيق وفي ركن منه مقهى صغير ومحل لبيع التذكارات الخاصة بمنزل جولييت، وفي نهايته ينتصب تمثال برونزي أخضر لجولييت يحرص الجميع على التقاط صور تذكارية معه وهم يضعون أيديهم على صدرها، إذا أردت أن تكمل استكشاف المنزل ما عليك سوى شراء تذكرة والدخول إلى حيث غرفة جولييت والاطلاع على لوازمها الشخصية وثيابها والإطلالة من شرفتها الشهيرة التي كانت تقف عليها لتتلقى كلمات الحب من فم روميو ولتنصت إلى عزفه لها.

تبدو الشرفة عالية جدًّا على عاشق في الثامنة عشرة حتى يتمكن من الحديث مع حبيبته. وربما بسبب هذا العلو الشاهق اكتفى روميو بالعزف واكتفت جولييت بالأحلام وحينما يئسا انتحرا عشقًا. فكتب حكايتهما شكسبير مسرحية، وخلدتهما مدينة فيرونا مزارًا يؤمه الناس وتحديدًا العشاق من كل مكان!

الناس لا يحبون النهايات العادية كنهايات الأفلام الرديئة، يعتقدون أن الموت العادي لا يخلد الحكاية ولا يصنع الأبطال، ربما لذلك عاشت قصص الحب الشهيرة بسبب نهاياتها المأساوية.

حين كدت أتجمد في القطار!

في طريق عودتنا من فيرونا، ركبنا قطار منتصف الليل متأخرتين جدًّا، كنا قد حجزنا مقصورة خاصة، وبتنا متأكدتين أننا سنحظى بسفر مريح وعودة مضمونة في مقابل ما دفعنا، لكننا حين صرنا داخل القطار فوجئنا بكل المقاعد والمقصورات وقد امتلأت بالركاب، وهناك من احتل أمكنة ليست له، وكانت مقصورتنا قد احتلت وصار من العبث اختلاق مشكلة مع الإيطاليين في قطار منتصف الليل!

صار علينا أن نقضي الليل عائدين من إيطاليا إلى ميونيخ وقوفًا في الممر بينما الثلج يتساقط بغزارة في الخارج، وفي أحيان كثيرة كان الهواء السريع يدفع به للداخل عبر بعض النوافذ التي تركت مفتوحة، فما كان مني سوى أن دفعت أقرب باب في الممر، حيث أقف مع صديقتي فقد كدنا نتجمد في الخارج وإن كان اقتحامنا للمقصورة يعتبر سلوكًا غير مهذب واختراقًا لخصوصية ذلك العجوز فيها، إلا أنه لم يكن بالإمكان غير ذلك!

مع توغلنا في طريق العودة عبر غابات من أشجار الصنوبر وفي ليل حالك تصفر فيه ريح جليدية، كان هطول الثلج قد حول الأشجار إلى كتل تشع بالضوء لشدة بياضه، بينما كنا نرتجف بردًا في

المقصورة التي كنا نحتمي بها مع العجوز الذي لم يتوقف عن القراءة لحظة، وكنت أغالب النعاس والبرد معًا، وكلما غفوت لبعض الوقت أيقظتني برودة المكان وضجيج العربات الذي كان يتسلل من كل مكان في هدأة ذلك الليل، أخيرًا تجرأ العجوز فعرض عليّ معطفه الذي لم أتردد ثانية في قبوله، تدثرت به ورحت في نوم عميق حتى مشارف مدينة ميونخ، حين تطلعت من النافذة بدا لي طقس المدينة عاديًّا وخاليًا من أية آثار للثلج، نزلنا من القطار في محطة ميونخ المركزية، فأعادني ضجيج المسافرين وجرجرة الحقائب على بلاط المحطة وحركة القطارات الداخلة والمغادرة لجو ميونخ الذي أعرفه جيدًا.

سحبت حقيبتي لخارج المحطة، وتوجهت لأقرب فندق يقع في الشارع المقابل للمحطة، حيث لم أكن على استعداد لمزيد من إضاعة الوقت في سيارة أجرة، كنت أحلم بغرفة نوم نظيفة دافئة، وبسرير مريح وأغطية وثيرة لا أكثر، ففي الصباح ينتظرني صف من المقاهي مقابل الفندق سأجد فيها ما لذ وطاب، نمت ليلتها كأنني لم أنم دهرًا!

(14) فيينا.. ليالي الأنس

ليالي الأنس في فيينا نسيمها من هوا الجنة

نغم في القلب له رنة سمعها الطير بكى وغنى

أغنية شهيرة تحضر في كل مرة تذكر فيها عاصمة النمسا، مع أن أسمهان غنتها عام 1944 أي منذ سبعين عامًا في فيلم غرام وانتقام.

المدن التي نزورها إما أن تشبهنا فنحبها، وإما أن تتنافر معنا فنكرهها، أو
لا نأتلف مع مناخها أو مزاجها، هكذا هم كل الناس حين يغادرون مدنهم إلى مدن السفر البعيدة، فتجدهم إما أن يحبوا مدينة دون سواها ودون أن يعرفوا تفسيرًا لهذه المحبة، وإما أن يعبروا عن ضيقهم الشديد من مدينة أخرى منذ الوهلة الأولى أحيانًا بمجرد أن تعبر بهم سيارة الأجرة شوارعها من المطار إلى الفندق الذي ينزلون فيه، للمدن مزاج يشبه مزاج الإنسان، بعض المدن مزاجها جميل رائق هادئ كوجه صبية حسناء، وبعض المدن صعبة المزاج وتحتاج إلى شيء من الوقت كي نتعود عليها.

مدينة فيينا واحدة من المدن العذبة التي لا يمكنك إلا أن تحبها إذا كنت من محبي الموسيقى والمسرح والمتاحف، والتسكع ليلًا في الساحات المكتظة بالعابرين وبموسيقى موتزارت وبيتهوفن، وبالرسامين وإذا كنت من أولئك الذين يعشقون تأمل أبراج الكنائس والكاتدرائيات والمباني الأثرية المهيبة، حيث يعبق المكان بالتاريخ وبالحضارة وبالحس الإنساني العميق، وحيث البشر في ساحة المدينة من كل الأجناس والألوان واللغات، الكل مبتسم والكل يبحث عن مكان ما على خريطة يحملها بين يديه ساعيًا إلى حيث يريد، كعادة الأجانب في أسفارهم، وهكذا تبقى فيينا ساهرة، بينما تصدح في جوانبها موسيقى عريقة تنبئ عن مزاج أوربي مختلف.

أحببت فيينا كثيرًا كواحدة من مدن النمسا كما أحببت ريفها ومنطقة البحيرات فيها، ولا أظن أن أرضًا حباها الله بالبهاء وبالجمال كما منح النمسا، لقد زرتها أكثر من مرة وعرفت مغرمين بها وبليالي الأنس في عاصمتها، فكم تتيح لك فيينا من أنسها الكثير شريطة أن تعرف أنت على وجه الدقة أي أنس تريد، وأي متع تبهج قلبك، لأن السفر لا يؤدى على طريقة فرض العين أو فرض الكفاية،
ولا على طريقة فعل لزوم ما لا يلزم، السفر متعة العين وبهجة القلب، واختيار تتلذذ به كل الحواس وأولها حاسة العقل وملكة الذاكرة، فإن لم تعد من سفرك معبأ بذاكرة تفوح منها روائح الجبال والبحيرات والشواطئ ووجوه النساء الفاتنات والأطعمة الشهية والساحات الضاجة بالبشر المختلفين فأنت لم تسافر أبدًا.

ليست المدن هي المملة أو السيئة أو التي لا تطاق، الحقيقة هي أننا نحن من لا يعرف مفاتيح المدن جيدًا، وهذه مسألة لها علاقة ماسة بثقافة السفر والترحال عند الإنسان العربي، فالسفر احتياج ومزاج وثقافة، وليس شرطًا أن تبهجني تلك المدينة التي قضى فيها أحد أصدقائي وقتًا ممتعًا، ليس شرطًا وليس بالضرورة أن يتشابه إحساسنا بالمدن أبدًا، بل الصحيح أن الإحساس بالمدن هو أكثر الأشياء اختلافًا بين الناس، ولأننا نسافر بالتقليد والتبعية أحيانًا، وبدون تفكير وتخطيط وتشاور في أغلب الأوقات، فإننا نذهب لمدن لا نختارها، بل يختارها لنا الآخرون، لأنهم أحبوها أو لأن أطفالهم قضوا فيها وقتًا ممتعًا، فحتى أطفالنا قد لا تعجبهم بعض الأماكن وقد تنقلب إجازتنا مأساة في بعض الأحوال لهذا السبب.

مدينة بانكوك مثلًا مدينة عصية على الفهم والمحبة منذ اللحظة الأولى، هي من المدن التي تناسب مزاجًا كثيرًا من الناس لأسباب متباينة، فهناك من يذهب للعلاج وهناك من يذهب للتجارة وهناك من يروقه التسوق فيضيع في أزقتها ودكاكينها ومراكزها لكثرة ما تغريه المدينة بالتبضع، وهناك من يذهب إليها على غير هدى فيضيع ويضيع منه الهدى، وهناك حتمًا من لا يطيق ملامحها وقذارة أحيائها وروائح الطعام المعروضة في عرض الطريق فيها!!

مدينة بانكوك من المدن المكتظة المزدحمة جدًّا، والتي لا يمكن لباحث عن الهدوء أو الفن أو الأناقة أن يجده فيها، قد تصلح لبضعة أيام للتسوق والعلاج لا أكثر لكنها مع ذلك مدينة تضج بالسواح وبالعرب وبالخليجيين تحديدًا، وبالأسرار والحيل والطقس الاستوائي اللزج، مدينة لزجة لا تغري بالعودة إليها بالنسبة إلى البعض، لكن البعض الآخر يعاود زيارتها للمرة الألف دون أي إحساس بالملل، ومثلها بومبي التي زرتها مرة واحدة عام 1985، ولم أكرر الزيارة مطلقًا، ومدن آسيوية أخرى كذلك لم تستهوني بسبب طقسها، فأيقنت بأن مزاجي ليس آسيويًّا أو استوائيًّا على الإطلاق، كما أيقنت بأن للمدن مزاجًا يشبه مزاج البشر، وروحًا تشبه أرواحنا وبأن الاتفاق والاختلاف مع المدينة ليس له قاعدة سياحية كما تروّج لها مكاتب السياحة لكن لها قاعدة نفسية بالضرورة.

(15) دبروفنيك.. مدينة الأسوار

في كل مرة أزور فيها مدينة ساحلية، تطل على البحر من أوسع نوافذه، تغسل جسدها فيه طيلة الوقت، وتضبط وقتها على مواعيد النوارس والرياح والأمواج، أشعر أن في هذه المدينة روحًا تتصل بمدينتي دبي، شيئًا من بحرها، وشمسها، وروح أهلها، أخلاقهم، دماثتهم، طيبتهم وانفتاحهم على الحياة ككل أبناء البحر والسواحل. فالبحر ديمومة الحياة والفرح والمعرفة، وأهل البحر يتعاملون مع الحياة كما مع البحر، بحذر المواجهة، وحكمة الانفتاح التي لا يعرفها إلا من ترك الموج آثاره على جسده وروحه، مدن البحر لا تشبهها أية مدن أخرى، تكاد تسمع ضجيج الحياة في أزقتها القديمة التي إن دخلتها علق قلبك فيها وصعب عليك قرار مغادرتها!

دبروفنيك، مدينة صغيرة جدًّا، تسكن وأهلها أقصى جنوب كرواتيا تواجه البحر الأدرياتيكي. أهم ما يميزها أنها محاطة بالبحر وبجدران حجرية ضخمة وشاهقة العلو، تم الانتهاء من بنائها في القرن السادس عشر، وقد تم الحفاظ على جميع مبانيها الأثرية بشكل محكم نظرًا للقيمة التاريخية الكبيرة لهذه المباني، وقد اجتذبت بهيبتها وغموضها صناع الأعمال السينمائية الضخمة فأصبحت قبلة لهم كمواقع تصوير مثالية للمسلسلات والأفلام التاريخية.

لقد تم الحفاظ على تلك المباني جيدًا في مواجهة ظروف الهدم كالحروب وغيرها، فمنذ العصر الباروكي لا تزال كنيسة سانت بليز الباروكية صامدة تستقبل الزوار وكاميرات السياح كل لحظة، إلى قصر سبونزا المطل من رومانسية فنون عصر النهضة، وقد تحول إلى متحف تاريخي. في الحقيقة وأنت تتنقل ببساطة بطول البلاد وعرضها لن تجد صعوبة في تفقد كل مبانيها وأزقتها وقصورها وقلاعها، فهي لا تتجاوز الـ 6 كيلومترات لا أكثر!

السياحة اهتمام الدول منذ سنوات طويلة، لكن التركيز يبدو واضحًا باتجاه التاريخ وما صار يعرف بالمدن القديمة، فما من دولة تعرض لك حسناتها لتغريك بزيارتها إلا وتقدم لك أوراق اعتماد مدينتها القديمة أو وسطها العتيق، حيث القصور القديمة، والبيوت العتيقة والأزقة الضيقة والشوارع المرصوفة بالحجارة الجبلية، وعازفو الموسيقى بآلاتهم التقليدية وملابسهم التي تعود للعصور الذهبية للمدينة، والناس كل الناس، من كل الثقافات، ومن كل الأعمار يتهافتون إلى هناك، يمشون بخطوات وئيدة، بوجوه راضية، وابتسامة واضحة، يسيرون بهدوء ويتأملون التفاصيل ببهجة، التاريخ حالة حنين محببة للجميع، وافتقاد إنساني عام للعمق والمعنى والحكمة والجدوى والامتداد الذي لا يمحى ولا يتوقف أبدًا!

حين مشيت في تلك الممرات الضيقة، والمرصوفة بحجارة مصقولة، وحين نظرت للأقواس الحجرية في القصور وتلك الجدران العالية جدًّا للكنائس، وجدت الدقة التي تميز نتاجات تلك القرون، المهندس الذي عمل بإتقان لإنجاز عمله، العامل الذي وضع الحجارة بتأن وتأكد من أن كل شيء في مكانه لن يتخلخل ولن يسقط ولن ينهار بسبب عيوب البناء وفساد الأخلاق، تلك الدقة في رسم اللوحات ونحت التماثيل والنقوش، تلك المهارة لا تتوافر اليوم إلا بأسعار خيالية، وقد لا تتوافر

لأن الزمن يمضي سريعًا ملتهمًا كل شيء في طريقه وأول ما يذهب إلى غير رجعة قيم أصحاب الحرف ومعايير الإتقان لديهم!

(16) برشلونة مدينة الروايات الملتبسة!

الأزقة الطويلة الضيقة والمتعرجة والتي تفتقد ضوء الشمس طيلة الوقت فتكتفي بأضواء الحوانيت المصطفة على جانبي تلك الأزقة. تغريك تلك الحوانيت الصغيرة بدخولها، فهي تعرض بضائع ليس من السهل العثور عليها أو مصادفتها في كل مكان، هناك رائحة خاصة بتلك الحوانيت، أما البائعات فتحسبهنّ للوهلة الأولى خرجن للتو من رواية إسبانية، بثيابهن الغريبة وقبعات القش والأساور التي تخشخش في أيديهن، وهن ثرثارات غالبًا ويستجبن لمشاكسات الباعة بسهولة. وكما هو معتاد في مثل هذه الأمكنة، فإن هذه الحوانيت تبيع تحفًا وتذكارات وقبعات، وملابس قديمة الطراز لا يشتريها أحد، ومشغولات فضية، وأحجارًا ملونة وغير ذلك مما يحرص السياح على اقتنائه. كل شيء في برشلونة يدفع للإبداع، فبرشلونة مسقط رأس كبار الرسامين، ومؤلفي القصص وكتاب الروايات، ففي إقليم كاتالونيا قامت نهضة أدبية عريقة ولا تزال.

تبدو برشلونة مدينة عبقرية، فهي جزء من دولة كانت ضمن أقوى إمبراطوريات التمدد والاستعمار في عصر الكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر وما تلاه، دولة تحفل بمدنٍ عريقة، تنتمي لعصر الحكم العربي الإسلامي الذي دام ما يقارب الـ 800 سنة، والذي ترك تراثًا عظيمًا متجسدًا في عدة مدن تعد اليوم من أكثر أماكن الجذب السياحي في إسبانيا العربية كما تسمى مثل غرناطة وقرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلد الوليد التي تحفل بآثار حضارة قوية في العمران والعلم والموسيقى والفن والشعر، ولعل الذين زاروا الحمراء يعرفون تمامًا تلك الدهشة التي تسيطر على الداخل والمتأمل لعظمة قصر الحمراء وحدائقه وزخرفاته وتماثيله.

تمشي في شارع الرامبلا الفسيح فتتذكر منطقة الرملة التي لا يزال اسمها عالقًا على ألسنة أهل برشلونة، وحين تيمم وجهك شطر الميناء قاطعًا شارع الرامبلا ومتقاطعًا في نهايته مع ممر كولمبس تتوقف مجبرًا أمام ذلك النصب الشاهق الذي يتربع على قمته تمثال البحار الشهير كريستوفر كولومبس مواجهًا الميناء مباشرة، كمن يستحضر كل التاريخ في لحظة الإبحار التاريخية منذ عدة قرون يوم انطلقت سفن الإسبان بقيادة كولمبس، الذي ينسب له اكتشاف الأمريكتين، باتجاه اكتشاف طرق جديدة للتجارة تكسر طوق سيطرة العرب والمسلمين على طرق الملاحة المعروفة في ذلك الزمان، وقد كان ما أراده الإسبان والأوروبيون، وجاء اكتشاف العالم الجديد ليقلب توازنات القوة رأسًا على عقب!

مفكرة مسافر

أشياء لا بد منها قبل الرحيل

منذ سنين طويلة كتب شاعر تركيا الكبير ناظم حكمت: «إن أجمل البحار بحر لم ترتده أشرعتنا بعد، وأجمل الأيام يوم لم نعشه بعد، وأجمل الأطفال من لم يولد بيننا بعد، وأجمل ما أود أن أقوله لم أقله بعد»، ومثله نحن وكثيرون غيرنا، فهناك دومًا حلم مؤجل لم نذهب للقائه علنًا ولا حتى خفية عن عيون الحاسدين، وهناك أمنية في البال مخبوءة لشخص ما وربما لعمر قادم، خاصة بالنسبة إلى هؤلاء الذين ينسون لكثرة ما يؤجلون أحلامهم، إن العمر لا يؤجل والأيام التي تذهب لا تعود، لكن ناظم حكمت قال ما قال لسببين حسب رأيي: فإما أنه كان
لا يزال شابًّا صغيرًا تتفتح أمام أيامه بوابات العمر مليئة بالمفاجآت والدهشة، وإما لأنه شاعر وظيفته تأثيث الأيام بالأحلام وتغيير الواقع بالكلمات.

إن أجمل الأيام هو ذلك اليوم الذي حققنا فيه أمنية غالية طالما داعبت القلب والعمر، وأجمل البحار والأنهار هو ذلك الذي طافت بنا مراكب جميلة مياهه ومدن سواحله، أما البحار الجميلة البعيدة التي تتراءى لنا من بعيد مدنها بيضاء جميلة بأبواب زرقاء ونوافذ ملونة كأقمار تتحول في القلب إلى لوعة وغصة لأننا لم نتمكن من الذهاب إلى هناك كغيرنا.

يوم كنا صغارًا سمعنا عن أماكن كثيرة جدًّا، بعضها خرج من عمق الحكايات، وبعضها من الأساطير وبعضها من قصص الذين كانوا يسافرون ويعودون محملين بغرائب الأشياء والمقتنيات، كانت أمي تباهي النساء لأن أبي كان يحضر لها الكثير من الهدايا والأشياء النفيسة والغالية من المدن التي كنا نظنها خلف الأفق الذي يطل عليه منزلنا، وكانت أمي وحيدة بين النساء اللواتي لديهن أجمل الأشياء، لكن الذاكرة ظلت تتشهى أماكن ومدنًا لم يخطر على بالنا أننا قد نطأها بأقدامنا.

إن أجمل المدن يومها كانت تلك التي في البال قصيدة وبيت شعر وحكاية عشق تتلى ككتاب مقدس، عن نفسي لم يخطر ببالي أن أدخل بيت الكاتب الإنجليزي وليم شكسبير، وحين دخلت مدينته ومسقط رأسه، وجدت بيته صغيرًا جدًّا وغرفة بالكاد تتسع لحركة شخص واحد، كانت هناك تفاصيل كثيرة وصغيرة تعجبت كيف أمكن لأهل المدينة الاحتفاظ بها خلال قرون كدفتر المستشفى الذي ولد فيه مثلًا وسجلت فيه بياناته كاملة!!

لم يكن بيت أو مدينة شكسبير من أجمل المدن أو الأماكن لأنني لم أحلم يومًا بها، لقد جاءت الزيارة إلى هناك عارضة وبطريق الصدفة، لكن أجمل البيوت التي أحببت زيارتها بالفعل كان بيت العاشقة الصغيرة جولييت في مدينة فيرونا الإيطالية التي عاشت فيها عائلتا روميو وجوليت اللذين دفعا حياتهما ثمنًا لصراع عائلتين متخاصمتين ومتعاندتين على الدوام.

أما مدينة فينيسيا فحكاية أخرى، إنها لكثرة ما رويت وقيلت في القصص والأفلام والروايات والصور تحولت إلى أسطورة اختلط فيها الخيال بالحقيقة حتى يظنها البعض أسطورة وليست مدينة حقيقية، لقد قال البعض: «هناك شيء لا بد للإنسان أن يفعله قبل أن يموت: أن يذهب إلى فينيس».

المدن لا تجامل عشاقها

لا تحزم أمتعتك وتتوجه إلى أي مكان وأنت تحمل تصورات الآخرين عن المكان الذي تنوي الذهاب إليه، من الأفضل أن تذهب بلا تصورات من أن تذهب محملًا بنصائح وأفكار وانطباعات كونها صادرة عن أشخاص آخرين يختلفون عنك في كل شيء، فلا شيء يمكنه أن يقلب مزاج سفرك رأسًا على عقب من فكرة رسمها لك آخرون عن أمكنة معينة، فإذا بك تكتشف العكس تمامًا، ذلك ما قالته لي صديقتي حين قررت أن تذهب إلى فينيسيا أو البندقية كما نسميها في العربية.

قالت لي: لو أنني استمعت إلى ما قالته إحدى قريباتي عن المدينة العائمة لما ذهبت إلى هناك، لكنني تركتها تثرثر دون أن أعيرها اهتمامًا، لقد ذهبت إلى فينيسيا ووجدتها – من وجهة نظرها – مدينة كئيبة تفتقر إلى النظافة وتكاد رائحة المياه الآسنة تخنق كل من يتسكع في ممراتها المائية، لقد خيل إليّ – تقول صديقتي – أن قريبتي هذه كانت على وشك أن تنظم حملة نظافة للمدينة.

هناك من يحلم بزيارة مدينة البندقية أو فينيسيا، حتى إنني شاهدت فيلمًا يحكي عن سيدة كانت تحلم بزيارة هذه المدينة، وقد قررت أنها لو تحقق حلمها فإن أول ما ستفعله عند وصولها أن تنام على أرضية ساحة سان ماركو وتقبل الأرض شغفًا، تلك حكايات قد لا تروق للبعض منا، والحقيقة المؤكدة هي أن الناس
لا يجمعون على حب مدينة أو الإعجاب بها بالقدر نفسه، فبينما يهيم بعضنا حبًّا بباريس لا يجد آخرون سببًا وجيهًا لزيارة مدينة ذهبوا إليها ولم يجذبهم فيها أي شيء حتى متحف اللوفر نفسه وقصر الإليزيه.

الأمكنة والمدن كالنساء لا يمكن الاتفاق حولها أبدًا، الأمر كله يمكن إرجاعه للذائقة وللطبيعة الشخصية ولطريقة حياة وخيارات كل شخص، كما يرجع لسؤال مهم جدًّا ربما يتوجب على كل منا أن يوجهه إلى نفسه وهو يحزم أمتعته مسافرًا إلى أي مدينة: ماذا نريد بالضبط من هذه المدينة؟ عمّ نبحث فيها هي تحديدًا دون غيرها من المدن؟ لا يمكن أن نحث الخطى ونستقل الطائرات سعيًا وراء مدينة وأمكنة لا نعرف ماذا نريد منها ابتداءً، قد تفاجئنا أشياء كثيرة وقد نكتشف أمورًا غير متوقعة، لكننا على الأقل نعرف لماذا نسافر إلى مدريد، وليس إلى برلين، أو لماذا إذا خيرنا بين العواصم يقع خيارنا على القاهرة، أو بيروت، أو براغ، أو فيينا، دون أن نفكر في عواصم أخرى مع أن المدن والعواصم أكثر مما نتصور على خريطة العالم.

صديقتي التي ذهبت إلى فينيسيا رأتها أجمل مدن العالم، وأكثرها رومانسية، ربما تكونت هذه الصورة من تلك الأفلام التي حكت عن البندقية وطرقاتها المائية وجندولها الذي يحمل العشاق والمحبين في رحلات شاعرية وعن مطاعمها الكثيرة وطعامها اللذيذ ومبانيها وساحاتها وكتدرائياتها العتيقة وعبق التاريخ الموغل في القدم والذي يبتسم لك بوقار وأنت تدخلها، ممتلئًا بحكايات بلا نهاية عن أحلام وكتب ورسامين وشعراء وقديسين وطهاة وعشاق وباعة جائلين وعازفي موسيقى يعزفون للمارة طوال الوقت.

المدن كالنساء لا تقبل القسمة على اثنين وهي متطلبة وصعبة إذا أحبتك فتحت لك كنوزها، وإذا كرهتك قلبت حياتك رأسًا على عقب.

المدن.. ناس وساحات

للمدينة طقوسها وتفاصيلها، وإن طعم الحياة ورائحتها يختلفان من مدينة إلى أخرى، وكلما سافرت وأدمنت الترحال في عمق الأمكنة، ازدادت ثقتك بأهمية التفاصيل التي تضفي بهجة من نوع آخر على المدن، تلك البهجة التي هي في النهاية مزيج من الوقت والتراب والإنسان بحسب معادلة الفيلسوف مالك بن نبي في تحليله العميق لشروط النهضة، إنك تحس بذلك المزيج وتختزنه في مكان ما من ذاكرتك وكلما ومض شيء أمام عينك هطل ذاك الحنين إلى تلك المدن.

قد لا تتصالح مع كل المدن والأمكنة، وقد تنفر من بعضها وتعشق بعضها الآخر دونما سبب ظاهر، لكنك تتعرف إلى السبب تدريجيًّا أو إذا تأملت التفاصيل بروحك لا بعينيك، والسبب يشبه ذلك الغموض الذي يحيط حين تحب شخصًا وتنفر من آخر دونما سبب، ومنذ اللحظة الأولى، فالمدينة كائن عضوي في نهاية الأمر.

في كل تفاصيلها الصغيرة المبثوثة بين مفاصلها وأزقتها وحوانيتها ومقاهيها وساحاتها ووجوه الناس القاطنين فيها يكمن ذلك السبب، وهي تفاصيل لا تعرفها ببساطة، لكنك تكتشفها كلما مررت عليها ولامستها بقلبك وروحك في جولاتك ونزهاتك التي تسرقها من عمر الزمن، فالساحات العامة في تلك المدن مثلًا، من التفاصيل التي يحبها الكثيرون في المدن التي يسافرون إليها، ويظل حنينهم إليها باقيًا كلما ذهبت عقولهم ترسم أجزاء الصورة وترش عليها من مكنون الذاكرة شيئًا من عزف موسيقيي الساحات ومهرجيها، وكثيرًا من الأصوات المتداخلة والضجيج وثرثرات رواد المقاهي، لتبدو فجأة على امتداد الأفق مدينة بأكملها اختصرتها أنت في مقهى صغير في ساحة عامة.

في كل المدن هنالك ساحات، ولكل ساحة اسمها ونشاطها وطابعها وتاريخها ووقعها على النفس، وكلما تصالح الناس في تلك المدن مع مفردات واقعهم وطقوسهم وشطحات عقولهم، كلما ازدادت تلك الساحات تنوعًا وغنى ووجدت فيها الكثير، مما يستحق الملاحظة والمعايشة، إنها الساحات التي تتحول فجأة إلى متحف كبير أو سوق ضخم ينتج أشكالًا لا حصر لها من صور الحياة قد لا تتكرر أمامك في مكان آخر.

متحف الساحات العامة يحكي لك بهدوء ذاكرة المدينة وأنت جالس على حافة مقهى ولست في عجلة من أمرك، تقول لك تاريخها من خلال مبانيها العجيبة الزخرفة والفائقة الفخامة والبذخ، كما تهمس لك بحكايات البسطاء الذين احتجوا هنا، وتظاهروا هناك، وأعدموا في هذه الساحة نفسها أو أسقطوا ذلك الملك وأعدموا تلك الإمبراطورة، ذاكرة المدينة تقول إن الساحات العامة لم تظهر فجأة ولم تظهر عبثًا وكذلك لم تبق بمحض الصدفة، إنها كانت ولا تزال جزءًا من تاريخ طويل ضخم أنتجتها لشعوب ودول.

كم ساحة عامة من هذه الساحات تسكعت فيها ماشيًا أو متأملًا في الوجوه والمباني وواجهات المحلات أو جالسًا على مقاهي الأرصفة لأيام وأيام حينما تستعيد تفاصيلها اليوم تجد أن آلاف

الوجوه التي مرت بك في تلك الساحات قد محيت تمامًا، وبأنك ما زلت تتذكر على وجه الدقة موسيقى عازف البيانو والكمان، وبعض الآلات الغربية الأخرى، كما تتذكر ضحكات الأطفال وبكاءهم كأنهم ما زالوا يتراكضون خلفك في هذه اللحظة.

ذاكرة الساحات العامة تختزن رائحة المكان وصوته، وهي ذاكرة قائمة بذاتها تشتعل فيك بحميمية وربما تبقى الرائحة الوحيدة التي تعبث في تفاصيل ذاكرتك دومًا، تحرضك على العودة إلى حيث توجد ساحة عامة.

المدن التي تعلّمنا الحكمة

على جسر تشارلز الشهير في مدينة براغ يعبر آلاف المشاة يوميًّا، لا يمكنك أن تحظى بدقيقة واحدة يمتد فيها بصرك من أول الجسر حتى نهايته من دون أن يصطدم بآلاف الأجساد العابرة والآتية من كل الدنيا، فعلى ضفتي نهر الفالتافا، تقع عاصمة التشيك، وعلى مياه ذلك النهر يتمدد 14 جسرًا ضخمًا ومهول البناء، وحده جسر تشارلز من بينها جميعًا يحظى بالشهرة والإقبال نظرًا لقيمته التاريخية، فقد شيّد سنة 1357، وفي طريقك لساحة المدينة القديمة، أو قلعة براغ الأشهر، لا بد لك من السير فوقه، عبر طريق عرف منذ أزمنة طويلة بالطريق الملكي، مواكب الملوك كانت تعبره إلى القصور والقلاع الفائقة الهيبة والبذخ!

انتهى ذلك الزمن، براغ اليوم مدينة تعتاش على ماضيها، على توقيعات الزمن وسيمفونيات الموسيقيين، والقلاع، والتماثيل، والقصور، والحدائق، والمدن المعلقة على تلالها المحيطة، حتى وأنت تجوب النهر في جولة نهرية والدليل يشرح لك ويشير إلى ذاك البناء وذلك القصر، فإن تلك الأبهة الخاطفة للنظر ليست سوى ماض تحول اليوم إلى مسارح ومتاحف ومؤسسات حكومية، الأمر نفسه تلمسه وأنت تعبر مياه وقنوات مدينة فينيسيا الإيطالية وبروج البلجيكية، وبودابست وغيرها، هذه عظمة بنيت في أزمنة سابقة وبعيدة، باقية كما هي بكل عنفوانها، لكن شيئًا من العظمة لم تضفه الأجيال الجديدة في هذه المدن، هذا الأمر يطرح على زمن الحضارة أسئلة في غاية الصعوبة!!

مع ذلك، فإن هذه المدن تتيح عبر ممراتها البشرية، عبر الجسور ومياه الأنهار وطرقات المدن التاريخية فرصة ذهبية تلتقي فيها أجيال لا حصر لها من البشر، يأتون من كل الأطياف البشرية، من كل الثقافات، الديانات، المعتقدات، الألوان، الأشكال، المستويات الاقتصادية والحضارية، بشر لا يربط بينهم سوى رابط الإنسانية فقط، يمشون بجانب بعضهم بعضًا، يتقاطعون في الأزقة وفي الأسواق والمتاحف والمطاعم وعلى تلك الجسور، يبحثون عن لغة توحدهم ليصلوا لقلب المعرفة والبهجة، ليحصلوا على المعلومة والفكرة، لا يتصارعون، ولا يكرهون بعضهم، ولا يمارسون أي شكل من أشكال الإقصاء أو الإلغاء أو التكفير أو الرغبة في القتل والإبادة، إنهم يمشون حذو بعضهم، كلّ بضجيجه وضحكه ولغته وثيابه، يمضون لبهجتهم، بينما تمضي المدينة بكل تاريخها وحاضرها لمصالحها ومصالح أهلها!!

نحتاج دومًا إلى مدن محايدة تعلّم الإنسان كيف يعيش مع غيره بسلام وتفاهم - عندما فشل كل شيء في تعليمه - مدن يسير فيها الجميع ليستمتعوا بأجمل
ما تتيحه لهم الحياة من فرص ومباهج!

المدن لا تعترف بمزاجك

سألتني صديقة عما إذا كنت قد سافرت إلى باريس، فتذكرت تلك المرة التي ذهبت فيها إلى باريس منذ أكثر من ثماني سنوات، وكانت المرة الأولى والأخيرة، بينما أجد أخي يتردد على باريس كمن يذهب لزيارة أصدقائه المقربين، ولي صديقة كلما ذكرت باريس تذوب، وهي الرسامة الفنانة عاشقة المدن الغارقة في الثقافة والرموز والفلسفة والشعر. ومع باريس فإن الأمر مع هذه الصديقة يتحول إلى قصيدة كقصائد موليير، لقد ذهبت إلى باريس في الوقت الخطأ والمزاج الخطأ، ولم أفكر بعد تلك الزيارة أن أعاود السفر إليها؛ لأن تجربة السفر الأولى لم تكن على ما تشتهيه سفن الخاطر ومراسي القلب.

الأمر مع المدن له علاقة بذلك السؤال الذي طرحه عليّ أخي ذات صيف من عام 1990، حين قررت السفر لأول مرة إلى الولايات المتحدة، لقد سألني: عمَّ تبحثين في الولايات المتحدة بالذات؟ ثم أكمل: في كل بلد تودين الذهاب إليه اسألي نفسك هذا السؤال، فنحن حين نسافر قاذفين أنفسنا إلى أراضٍ بعيدة، وتحت سماوات مغايرة، إنما نفعل ذلك حبًّا في معرفة شيء أو بحثًا عن شيء أو طمعًا في التأكد من شيء أو حلمًا في تحقيق شيء.

بعض المدن مزاجها جميل رائق عذب كمدينة فيينا مثلًا التي لا يمكنك سوى أن تحبها إذا كنت من عشاق الموسيقى والمسارح والمتاحف، والتسكع ليلًا في الساحات المكتظة بالعابرين وبموسيقى موتزارت وبيتهوفن، وبالرسامين، وأبراج الكنائس والكاتدرائيات، وخصوصية الطعام النمساوي، حيث يعبق المكان بالتاريخ والموسيقى والحس الإنساني العميق، ولقد قالت لي صديقة إن زيورخ هكذا، لكنني حين عبرتها وجدتها مدينة لا طعم لها.

المدن لا تغير مزاجها لأجل أحد، وهي تمنحك حرية محبتها أو النفور منها، فإذا أحببتها أتاحت لك أسرارها وحكاياتها بشكل يغريك بأن تأتيها مرارًا كلما عبقت الذاكرة بشيء من رائحتها، فتصير كعاشق لا يستطيع كتمان شوقه، هكذا تعصف بعض المدن في دماء البعض فيرتحلون إليها كلما هلت على البال أغنية أو صورة ترسم الابتسامة وتدفئ القلب، هكذا تعصف بيروت في ذاكرتي، وهكذا بقيت اللحظات التي قضيتها في القاهرة عصية على النسيان على الرغم من مرور السنين!

في ثقافة السفر والترحال، كثير منا يفتقدون أبجديات هذه الثقافة، ولذلك يقعون فريسة التقليد والمزاجية والملل، بينما السفر احتياج وثقافة، وعليه فليس شرطًا أن تبهجك تلك المدينة التي قضى فيها أصدقاؤك وقتًا ممتعًا.

نعم.. يغيرنا السفر!!

الذين خبروا السفر وتحدثوا عنه، قالوا إن فيه خمس فوائد، جمعها هذا الشطر من بيت شعر شهير، «سافر ففي الأسفار خمس فوائد.. تفريج هم واكتساب معارف وعلم وآداب وصحبة ماجد».

كما ربطوا ربطًا وثيقًا وحصيفًا بين السفر واكتشاف جوهر الإنسان أو الصديق، حيث لا تدعي قبل السفر معه أنك تعرفه، ويسألونك أتعرف فلانًا؟ فإن قلت نعم، سألوك، أسافرت معه؟ فإن أجبت بالنفي، نفوا هم أن تكون قد عرفته! فإن استغربت من هذه النتيجة أو من هذا الحكم، فلا تتردد أن تسافر مع صديقك، فقد يكشف لك السفر وجهًا لم تكن تتمناه، ويكشف له منك وجهًا لم يكن يتوقعه، ليس شرطًا أن يكون سيئًا أو سلبيًّا، لكن السفر على كل وجوهه يمثل قيمة اكتشاف لا حدود لها.

غالبًا ما يتحول الكثير من الناس في أسفارهم أو خارج جغرافيتهم إلى أشخاص آخرين، متحررين من سجن الشخصية التي يريدهم المجتمع أن يكونوها أو يكونوا عليها، ولأن معظم الناس يعرفون أهمية المجتمع والحرص على رضاه وعدم الرغبة مطلقًا في التصادم معه، فإنّ معظمهم يعيشون بأكثر من شخصية وبأكثر من وجه، ولكنهم في الفضاءات البعيدة يصيرون كائنات أخرى أكثر خفة، لا تطاق أحيانًا، وذات رعونة شديدة أحيانًا، ومفاجئة في جمالها أحيانًا أخرى، لهذا نقول إن السفر يغيرنا أحيانًا، بمعنى يظهر حقيقة طبائعنا وأخلاقنا كذلك!

السفر إحدى الفرص التي تمكنك من معرفة الناس بلا أقنعة، ولقد حدثني بعض أصدقائي عن أنهم عرفوا أعز أصدقائهم على حقيقتهم في السفر، بينما اكتشف البعض الآخر في أقرب المقربين وجوهًا لم يتمنوا يومًا أن تكون فيهم، فما الذي يفعله السفر بالناس يا ترى؟ إنه يقدم لهم فرصة الخلاص من عبء الجاذبية الاجتماعية، يحررهم من الانقياد لقائمة المطالب والممنوعات، ويبعدهم عن أرض الرقابة والعيون المفتوحة على عوراتهم وعيوبهم، يجمعهم في أرض غريبة بأناس غرباء، فيشعرون أن كل شيء يقف على مسافة متساوية ومحايدة منهم، وأن لا أحد يعنيه إن ارتدوا تلك الملابس أو سكنوا ذلك الفندق الرخيص أو تسكع ذاك الشاب حتى آخر الليل في أحياء مشبوهة أو جزر سيئة السمعة، أو دخل ذلك «البار» أو جالس تلك الفتاة أو أظهر حرصه أو بخله بالشكل الذي لا يخجل منه.

إذا صادف وجودك في بلد تذهب إليه للمرة الأولى، فإن الناس الذين ستلقاهم يبدون مختلفين عن أولئك الذين اعتدت أن تراهم في حياتك اليومية والمعتادة، أمر واحد لا تحاول أن تندفع فيه أكثر مما ينبغي: تصديق كل ما يروى أمامك والتفاعل العاطفي مع القصص التي يرويها البعض على أنهم كانوا أبطال زمانهم وأنهم ظلموا أو تعرضوا لنكبات الزمان، فقد يحلو للبعض أن يتسلل إلى عالمك من نافذة البطولة الكاذبة أو التراجيديا السوداء، لا تحاول أن تبدو أو تجبر نفسك على أن تكون لطيفًا أكثر من اللازم أو مضحيًا ومتعاونًا أكثر مما يجب، فلا شيء يحتم عليك لعب هذا الدور حتى وإن كنت أكثر الناس طيبة وخلقًا، إن أكثر ما يعلمنا إياه السفر أن نكون عمليين وملتزمين بما لنا وما

علينا لا أكثر من ذلك
ولا أقل.

نعم.. يغيرنا مناخ المدن

بلا شك فإن طبائع الناس وأخلاقهم وتوجهاتهم تختلف من مكان إلى آخر، وما يعتبر لدى شعب قيمة كبرى تسيل لأجلها دماء تنظر إليها شعوب أخرى على أنها مسألة نسبية بحتة، وبلا شك فإن المناخ يلعب دورًا مؤثرًا في أمزجة البشر وأنشطتهم ونوع الحرف والأعمال التي يمارسونها، هذا ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة التي أثبت فيها هذه العلاقة وارتباطات أخرى كثيرة عن طريق الملاحظة والتعمق في دراسة أحوال الشعوب والممالك.

كما ظهر الاهتمام بتأثير البيئة على الإنسان في أوروبا في عصر النهضة، وخاصة بعد الاكتشافات الجغرافية، التي أدَّت إلى توسيع دائرة المعرفة بالعالم، ولعل أغرب شاهد على أهمية المناخ ما ذهب إليه بعض المؤرخين، في استعمال المعطيات المناخية لتفسير ظاهرة تاريخية معينة، حتى إن البعض منهم حاول ربط فترات الازدهار (كالنهضة الأوروبية مثلًا) باعتدال المناخ، وفترات الراحة.

ولعل ما جاء في كتاب لورنس هارسن (من يتحضر أكثر) جدير بالتوقف والتثبت، حيث يقول: «إن أغلب سكان المناطق الحارة (ويقصد بلدان العالم الثالث) تقلُّ لديهم قيمة حب العمل، ويسود الكسل؛ نتيجة رغبة الأفراد في الهروب من الشمس الحارقة؛ سعيًا للاسترخاء في المناطق الظليلة، وهو دافع بيولوجي يساهم المناخ فيه؛ مما يؤدي إلى اتساع الشعيرات الدموية للأفراد، ويجعلهم عرضة للإجهاد والإرهاق نتيجة أقل مجهود يبذلونه، وهو ما يتحول تدريجيًّا إلى ثقافة اجتماعية، تفضل العمل في المكاتب المكيفة مثلًا على العمل اليدوي في العراء.

ليس في الكلام أي نوع من الادعاء أو الدونية فحتى عالم الاجتماع الشهير ابن خلدون قال بتأثيرات المناخ على أمزجة وطبائع السكان في مقدمته الشهيرة، لكن هناك من يراه متسقًا مع نظريات التفوق العرقي التي سادت أوروبا زمنًا، وقد يجد فيه البعض محاولة مبطنة لتبرير فكرة العجز والكسل ومن ثم القبول بها على أنها قدر مقدور، وعلى العالم الثالث أن يقبلها لأنها خارجة عن إرادته، وبالتالي فلا نصيب له في التحضر والعمل والإنتاج، وهذا معناه في المحصلة النهائية تمرير فكرة أن هذا العالم يجب أن يظل الى الأبد منقادًا لفكرة أن الغرب هو صاحب الحضارة والإنتاج والتصنيع والعالم الثالث هو سوق الاستهلاك الأكبر لمنتجاته وصناعاته لا أكثر، هكذا قسموا الأقدار وعلينا أن نرضى بهذه القسمة.

لقد وجدت في الشعوب التي تخلصت منذ سنوات من حكم الديكتاتوريات الشمولية في شرق أوروبا شعوب منتجة كبقية شعوب القارة لكنها شعوب قاسية حادة الطباع، وهي أقرب للجلافة لا فرق بين موظف الاستقبال في فندق محترم وبائعة شابة في محل أنيق وسائق التاكسي، فالكل متبرم ضيق الخلق عابس على الدوام «لا يضحك وجهه للرغيف السخن» كما وصفتهم تلك المصرية التي ضاقت بمعاملتهم في المصحة التي تقطن فيها للعلاج. فلماذا لم يعمل المناخ الجميل والطبيعة الخلابة على ترقيق أخلاقهم إذن؟

لأن هناك عاملًا آخر مهمًّا علينا أن نتفهم دوره، وهو تأثير العامل السياسي في طبائع الناس، فالنظام الديكتاتوري إذا طال أمده حوّل الناس إلى كائنات صعبة المراس لا تعرف الابتسامة!

ذاكرة المدينة والريف

عندما زار الكاتب المصري الساخر محمود السعدني - شقيق الممثل صلاح السعدني - بريطانيا، وتنقل بين مدنها وريفها، كتب مقالًا عن الريف الإنجليزي، قال فيه إن الريف في أوروبا أجمل وأفضل وأكثر رفاهية وتطورًا من المدينة، وأن الأمر بخلاف ما هو عندنا في العالم العربي، حيث تسعى كل الحكومات إلى جعل المدينة نقطة الاستقطاب ومركز الخدمات، بينما يظل الريف العربي مثالًا للتخلف والفقر والأمية وانتشار الأمراض، فلا يسكن الريف إلا الفقراء المعدمون ولا يتخلص الريفي من فقره وجهله وكوارثه الحضارية إلا إذا يمم شطر المدينة، حيث الجامعات والمشافي والشوارع والـ...!

رحمك الله يا سعدني، فكلما يممت صوب الأرياف الأوروبية تذكرت كلامك هذا وتساءلت عن سر الحياة بالمقلوب في بلادنا العربية؟ فقد زرت عواصم كبرى في أوروبا تعج بكل بهاء الحضارة وجمال المدنية، الزحام، والشواهد الحضارية الكبرى، الأسواق، مراكز الفن والخدمات، دور العلم والجامعات وغير ذلك، لكن الراحة لا تجدها إلا في الريف الذي وإن خلا من علامات المدينة الضخمة إلا أنك لا تفتقد فيه ملامح الراحة، وأفضل مستوى الخدمات والإمكانيات المطلوبة ليلًا ونهارًا.

أتذكر أنني جلست في ساحة قرية من قرى الريف النمساوي عام 1999، وسمعت عجوزًا تتحدث إلى رفيقتها باستياء وغضب، وحين سألت عن السبب، علمت بأنهم في القرية يعيشون حدثًا مزعجًا أثار استياءهم جميعًا، فقد استيقظوا على صوت سيارة شرطة غير معهودة، والسبب بلاغ تقدم به أحد السكان عن سرقة دراجته، قال لي (جوزيف) صاحب النزل الذي أقيم فيه بأنهم في القرية لم يسمعوا عن سرقة أي شيء منذ 25 عامًا وربما أكثر!

هذه واحدة من الحكايات التي لا أنساها، لأنني كنت في الساحة القديمة في بروكسل ذات يوم من شهر أغسطس، فوضعت هاتفي جانبًا، واستغرقت في تأمل رصف سجادة الزهور الشهيرة في تلك الساحة، وعندما وضعت يدي لأخذ الهاتف كان قد اختفى في غمضة عين. بينما كانت صديقتي تنهي إجراءات تسلمها غرفتها في أحد فنادق الدرجة الأولى في أمستردام، وعلى حاجز الاستقبال أعطت الموظفة جوازها، وحين التفتت لحقيبتها لتأخذ بطاقة الاعتماد كانت كل حاجياتها قد اختفت!

وحين لم أحتمل حرارة وقذارة باريس صيف عام 2005، ولا زحام السياح والوقوف لأكثر من ساعة بانتظار الحصول على طاولة في مقهى صغير، لم يرحمني من ذلك الشقاء سوى ريف النمسا البارد الهادئ، أنا السائحة العربية التي تأبطت أمتعتها فارة من جحيم حر الصحراء باحثة عن نسيم بارد وجمال باذخ، ندفع لأجله الكثير، لا لنحصد السرقات والسخرية والمضايقة، ولكن لنحظى بشيء نستحقه من المتع الحلال المتاحة التي لا تتوافر كما يجب إلا حيث قال أستاذنا محمود السعدني - رحمه الله تعالى: الريف!!

بينما ارتبط ريفنا العربي بالمرض -فأشهر مطربينا عبدالحليم حافظ مثلًا- ظل طوال عمره يعاني التهاب البلهارسيا التي اغتالت شبابه وموهبته، ولو لم تكن القاهرة العظيمة بكل عظمائها ما تفجرت عبقرية أم كلثوم، وطه حسين، وفاروق الباز و... أعلام لا حصر لهم، لو أنهم بقوا في الريف لما سمعنا عن سلسلة العبقريات والمواهب هذه، وغيرها في بلادنا العربية، الريف في النمسا وألمانيا وبريطانيا ملجأ لكبار الأثرياء والتجار؛ ولذا تحتاج الحكومات العربية الجديدة التي ظهرت بعد هذه الثورات العربية أن تغير مفاهيم إدارتها وأنماط وخطط التنمية فيها، وأن تستثمر في الريف، بعد أن اتضح من كل التاريخ أن الريف هو الرافد الحقيقي للمدينة بكل أنواع المواهب.

القهوة.. تاريخ عائلي!

(أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي).. قصيدة محمود درويش الفائضة بالحنين والروائح، والتي غناها مارسيل خليفة سنوات الثمانينيات، ما زالت من أجمل القصائد التي رسمت تفاصيل الحنين للأم وقهوتها. سمعتها للمرة الأولى وأنا طالبة في الجامعة، يوم تسرب صوت مارسيل إليّ من غرفة إحدى الصديقات، بينما ألملم كتبي في ذلك الصباح الباكر مسرعة صوب موقف الحافلات في السكن الداخلي بمدينة العين، كنت في تلك الأيام كلما نهضت من نومي متخبطة في بقايا النعاس والأحلام وهواجس الامتحانات تتراءى لي أمي وهي تعد قهوة الصباح على مهل في بيتنا في دبي، بانتظار أبي الذي يشربها بمزاج صامت، وجدي الذي يحضر صاخبًا من بيته المجاور ليشرب فنجانًا (يعدل الراس) من قهوة أمي كما كان يردد. كنت بالفعل أفتقد كل ذلك وأحن أكثر إلى قهوة أمي .

أحب القهوة كما أغلب الناس، ولا أتصور أن يمر يوم لا أشرب فيه هذا المشروب الفائق السطوة والفخامة معًا، مشروب في سطوته شبيه بنمر متوحش، وفي فخامتها تشبه القهوة أميرة متوجة بكبرياء يقتحم أريجها غرفة نومي صباحًا، فلا أقاوم تلك الرائحة، أرمي الأغطية جانبًا وأنزل متتبعة الرائحة كحيوان بري يتبع رائحة فريسته، إنها قهوة أمي، وإنها قهوة درويش الذي وصفها بأنها أخت الوقت.

القهوة مفتاح الصباح والمساء، رفيقة المزاج وتوأمه، طقوس أمي، وذكريات جدي، وصمت أبي.

القهوة كفيروز، كطريق النحل، كطير طاير على أطراف الدنيا، كأثر سومري، كياسمين دمشقي، كمطرزات على ثوب تونسية، كشيخ من أرض مكناس، وكشمس مصرية من ذهب .

هكذا هي القهوة تمامًا، تصنع على مهل كحضارة أندلسية وتشرب على مهل، لا بد من هذا التمهل.

لا أخطئ رائحتها أبدًا منذ زمن بعيد، منذ أن بدأت أعرف طقوس أمي في إعدادها، ومنذ أن حفظت خط سيرها من دكان البائع الكائن في منطقة (الراس) بدبي إلى أن تصير مسحوقًا يتماوج بين السمرة والذهب في علبة زجاجية في مطبخ والدتي التي لا تحب شراء (قهوة المحمصة) الجاهزة، تقول: هذه ليست قهوة، قهوتنا هي القهوة الحقيقية، لذلك تذهب أمي دكاكين الباعة الإيرانيين في سوق الجملة لانتقاء أجود حياتها القادمة من جزيرة سيلان، قهوة خضراء طازجة، تحضر كمية كبيرة منها وتحفظها في أوان زجاجية بعد أن تغسلها عدة مرات وتجففها على وهج الشمس وتحمصها بطريقتها الخاصة لا حبة نيئة أكثر مما يجب، ولا حبة محترقة أكثر من اللازم، ثم تطحن قليلًا منها لبعض الأيام كي تظل القهوة طازجة على الدوام دون أن تغفل إرسال نصيب إخوتي من هذه الثروة !

وإن نسيت فلن أنسى حكاية الراحل محمود درويش حين كان يقاوم صلف الجنود الإسرائيليين في معتقله القاسي بقهوة أمه وخبز أمه، وقد كتب أجمل القصائد في ذلك (أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي.

محمود درويش الطفل المغموس في مشاعر القهر والسجن، كان مراهقًا صغيرًا حين أودِع المعتقل، وجاءت أمه تزوره فكان لا يطلب منها سوى المزيد من القهوة، ثم كتب تلك القصيدة.

في دولنا الشرقية تعقد حول القهوة جلسات مسائية لا تنتهي، وفي صباحات بعض المدن تستمر طقوس شرب القهوة لساعات حيث تدور الفناجين وطاحونة الكلام بين النساء والرجال.

رائحة القهوة تجتذب الأصدقاء والجيران، وسرعان ما تنعقد الجلسة على شرفة أو تحت ظلال شجرة أحيانًا لتقال الحكايات، وتنسل من الأفواه أسرار وذكريات، وأخيرًا (تسلم القهوة ويسلم صاحبها) ويذهب كل في طريق.

القهوة لا تُرَدّ ولا تُرفَض إذا قدمت؛ لأن ذلك في أعراف العرب خطأ لا يجوز ارتكابه، كما أن القهوة واحدة من آليات الضغط للحصول على مطلب معين، فأنت إذا وضعت فنجانك على الأرض ولم تشربه في أعراف القبائل العربية دل ذلك على أن لك طلبًا خاصًّا من صاحب القهوة أو صاحب البيت، فيقال لك: اشرب قهوتك بمعنى لقد أجيب طلبك !

القهوة قصة كبيرة لمن يعرف معناها لكن على الطريقة العربية، وليس على طريقة الكابوتشينو الإيطالية، فالقهوة هناك للمزاج ولمة الأصحاب أيضًا. هناك لن يلتفت إليك أحد إذا وضعت قهوتك جانبًا أو حتى سكبتها على الأرض، لأنك دفعت ثمنها مقدمًا .

دلة قهوة الصباح جاهزة على الدوام معطرة بماء الورد وبالهيل، وبالنسبة لي فهي ممزوجة دائمًا بصمت أبي وتحية جدي الصاخبة وبأغنية مارسيل خليفة. ولقد ورث أخي الصغير عشق فنجان القهوة (الذي يعدل الراس) على طريقة جدي، فصار يأتي إلى بيت أمي خصيصًا ليشرب هذا الفنجان .

ليس مجرد فنجان قهوة

يحلو الجلوس على مقاهي الأرصفة المفتوحة، تلك المقاهي التي تميز مدن أوروبا وقراها صيفًا وأحيانًا شتاءً، حيث تفتح للجالس فيها فضاء المكان ليطل من حيث يجلس على مشاهد وحكايات كثيرة وأصوات وألوان، فضاء الشارع المقابل للمقهى، حيث اخترت ركنك المفضل وجلست، عالم جدير بالتأمل ويستحق الإنصات لكل ما يعبر فيه، لذلك تقرر اليوم أن تجلس بهدوء وبصحبة كتاب وفنجان قهوة تحتسيه على مهل مستمتعًا به أكثر من كونك محتاجًا إليه.

تنحني الطرقات كلها هنا شوقًا لبهاء اللون الأخضر، فكل ما يحيطك أخضر ملون وبهي: الطرقات، الجبال، مداخل البيوت التي تذكرك بأغاني فيروز، وشرفات الفنادق الصغيرة المطرزة بأجمل أواني الورد، وتلك المقاهي البسيطة جدًّا التي لا يمكن أن تفتقدها حتى لو كنت على ارتفاع 3000 متر، كل تلك التفاصيل تملؤك بالراحة والبهجة وتشعرك بأنك تقضي إجازة حلوة يمكن أن تحسد نفسك عليها.

الجمال يعلِّم الذوق، والذوق ينتج تفاصيله المبهجة والصغيرة جدًّا، مقاعد الحدائق الصغيرة، زينة أواني الزرع، سياجات المداخل المنمنمة، أغطية طاولات المقاهي، وسائد الكراسي الضاجة بفراشات وزهور ملونة، محلات التذكارات البسيطة، أشياء لا تحصى تأخذك إليها وتعيدك كطفل مملوء بالدهشة لا أكثر، أنت الذي اعتدت زمنًا على افتقاد هذه النعمة، نعمة الوقوف، دهشة أمام أي شيء!!

تقرأ في كتاب «النبطي» للمصري يوسف زيدان، فيأخذك إلى عوالمه الخاصة، عالم المخطوطات التي يرأس دائرتها في مكتبة الإسكندرية العريقة، والتي من عجائبها وأسرارها وذخائرها استوحى زيدان رائعته «عزازيل» وها هو يتحفنا مجددًا برواية أخرى تسير على المنوال نفسه حتى وإن طرقت عوالم أكثر فتنة عبر شخصية النبطي والفتاة القبطية مارية، وإذ تقرأ ما بين يديك تشعر بأن الحياة كلها كتاب مفتوح على أغرب الحكايات وألا شيء يولد الغرائبية كهذا الإنسان في كل ما يصدر عنه، وأن الإنسان مهما كان بسيطًا من وجهة نظرك، إلا أنك بمجرد أن تلج عوالمه التي لم يكشفها لأحد، عندها أنصت جيدًا، فقد تعثر على حكاية أسطورية بشكل أو بآخر.

حيث أجلس، بدا رجل يتوكأ على عكازيه، بعد أن فقد إحدى ساقيه بينما كان أبناؤه يتحلقون حوله وغيمة حزن تخيم على المسافة بينه وبين زوجته، بينما بدا ذلك الشاب وكأنه يتلهى بتقليب صحيفته العربية التي بين يديه دون أدنى شهية للقراءة، في الوقت الذي غابت زوجته عما حولها غائصة في عالم رسائل «البلاك بيري»، أما تلك المرأة باذخة الجمال، فقد بدت بحجابها الأنيق أكثر فتنة من أية امرأة أخرى في المكان، مع ذلك فقد كانت غافلة كليًّا عما سببته فتنتها من تأثير على أولئك الشباب الذين تسابقوا في وقت واحد للحصول على المقعد الوحيد الذي بقي خاليًا بالقرب منها، تلك الصبية التي لم تترك لونًا إلا وضعته على نفسها، انهمكت بالحديث بصوت عال جدًّا لفت كل زبائن المقهى، بينما لاحت ابتسامة سخرية على طرف بعض الأفواه!!

عالم المقهى غني جدًّا بالحياة والتفاصيل، وإذ تسترخي في مقعدك فأنت بإزاء كتاب مفتوح على عوالم حقيقية تحتاج منك أن تقرأها بقلبك لا بعينيك، وألا تكتفي باحتساء فنجان القهوة وتمضي فارغ القلب.

وحيدًا على رأس جبل!

يحدث أحيانًا أن تصحو من نومك دون مخطط محدد ليومك التالي خاصة إذا كنت تقضي عطلة استراحة طال أمد انتظارك لها، وإذ تفتح عينيك فلا يلوح في فضاء عقلك سوى نهار طقس أبيض خال من الخرائط ومحطات البنزين واستراحات الطريق، نهار لا يلوح فيه شيء سواك ووجه صاحبة الفندق ونادلة المقهى الصغير في آخر الساحة وبالكاد جريدة عربية وحيدة تحمد الله أن استطاعت شركة التوزيع الاستدلال على هذا المكان القصي من العالم فأوصلت بضع نسخ لخمسة أشخاص يتحدثون اللغة العربية، ومع ذلك فقد يحدث أن ينقلب كل ذلك بشكل مباغت.

تقرر أن تقضي اليوم في صحبة الفراغ والهدوء، ستقود سيارتك إلى قرية مجاورة لتجلس في استرخاء تام بصحبة أناس لا علاقة لك بهم ولا علاقة لهم بك، ينظرون إليك من طرف خفي ويتهامسون، تقول ربما يتهامسون علي وتقول ربما لم يلحظوا حتى وجودي لكنهم يهمسون لأنهم ليسوا مثلنا حين يحدثون جارهم يقررون إسماع الحي كله، في النهاية تقرر أنه لا يعنيك أمر همسهم فأنت قد جئت لتشرب فنجان قهوة نصحك به أحدهم ذات يوم، وفجأة تقرر أن تركب المصعد الكهربائي لتعتلي أعلى قمة جبلية في المنطقة هكذا دون تخطيط، تقوم مسرعًا، تشتري تذكرة المصعد، وتركب محلقًا بين السماء والأرض ممتلئًا بالدهشة لأنك اكتشفت أنك لا تخاف من الأماكن المرتفعة كما أغلب الأصحاب وأفراد العائلة.. تحمد الله وتمضي إلى 2000 متر ارتفاعًا.

تجلس في الأعالي لتشرب قهوة أخرى لا تشعر بنكهتها ولا بضرورتها لكنك طلبتها لأن الجميع فعلوا ذلك، وفجأة يرن جهاز هاتفك، وإذا بك مطالب وبشكل لا مجال لمناقشته أن تتوجه إلى مكان يبعد عنك حيث أنت أكثر من 300 كيلو متر، عليك إذن أن تهبط من حيث أنت في المكان وأن تخرج من سكينتك وأن تعيد برمجة دماغك، لتتوجه لمطار عاصمة مجاورة، لأن هناك من جاء من الإمارات وليس بإمكانه أن يصل إلا معك، تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله وتمضي مسرعًا.

في الطريق تصطدم براكب دراجة يحطم جزءًا لا بأس به من سيارتك المؤجرة، فتفكر في التكاليف وتفكر بهذا الشاب الذي كسرت ساقه، وتفكر في تعقيدات الشرطة هنا وفي التأخير الذي سيترتب عليه عدم وصولك للمطار في الوقت المناسب، وفي مشكلة اللغة وجوازك الذي ليس معك وفي.. وفي.. وتقول لو لم أرد على الهاتف لكنت ما زلت أستمتع بالهدوء والفراغ وبفنجان القهوة الذي لا نكهة له.

تنتهي الحكاية على خير، ويقول الشاب إن إصابته بسيطة ولا داعي للشرطة فتتحمل وحدك تكاليف تصليح السيارة لأنك لا تريد أن تتأخر عن المطار، وتكمل طريقك، فإذا بطابور من السيارات يسد الأفق، هناك حادث فتطيش أعصابك، وتذهب باحثًا عن طريق بديل لأنك لا تريد أن تتأخر على المطار، تتقاذفك الطرقات ولكنك تصل إلى ما قبل المطار بأقل من نصف ساعة، لقد بذلت جهدًا خرافيًّا بالفعل، لكن الذي لم يخطر ببالك أبدًا أن يكون الشخص الذي فعلت كل ذلك لأجله قد استأجر

سيارة وذهب إليك ووصل إلى حيث تسكن، وهو يتصل بك ليقول ببرود في أي غرفة تسكن؟ فأنا في الفندق الفلاني.

الحنين لبلاد الأسلاف

تكتب الروائية التشيلية إيزابيل الليندي عن الحنين والذاكرة دون أن تشعر
- هكذا تقول - فهي امرأة استوطنت الذاكرة مضطرة لعدم وجود مكان جغرافي بديل وثابت تستوطنه بعد أن تركت وطنها تشيلي أحد بلدان العالم الثالث لتتمسك بزوج وبيت في كاليفورنيا ولتبقى هناك في العالم الأول، وهي كما تقول غير مستعدة بعد هذا العمر للعودة للعالم الثالث أو للتخلف دون سبب مقنع، أدمنت الترحال والانتقال وجابت القارات الخمس إطفاء لذلك الحنين، وقد وصفت ذلك الترحال على أنه تمرين متواصل على الاشتياق، فطوال حياتها كانت إيزابيل التشيلية الجذور، الأميركية الجنسية غريبة تقريبًا وهو الحال الذي قبلته لأنه لا خيار آخر أمامها! حينما شرعت في كتابة «بلدي المخترع» الكتاب الذي وجد استحسانًا كبيرًا كبقية كتبها لدى النقاد والقراء، فقد عبرت حادثين بشكل تلقائي لكنهما أثرا فيها وجعلاها تحزم حقيبتها وتذهب إلى بيت الأسرة الكبير في تشيلي.

الحادث الأول: تلك الملاحظة العابرة التي أطلقها حفيدها أليخاندرو الذي باغتها وهي تتحرى خريطة تجاعيدها أمام المرآة، فقال لها مشفقًا: «لا تهتمي يا عجوزي، ستعيشين ثلاث سنوات على الأقل»، عندها قررت أن الساعة قد حانت لتلقي نظرة أخرى على حياتها المتأرجحة بين المطارات والندوات وحفلات توقيع كتبها والمحاضرات التي كانت تقدمها حول العالم.

أما الحادث الثاني فكان في إحدى ندوات الرحلات التي طلب منها أن تقدم افتتاحيتها، وبعد أن انتهت رفع أحد الحضور يده ليسألها: ما الدور الذي يلعبه الحنين في رواياتك؟ ولقد بقيت صامتة للحظة، لأنها كما تقول لم تكن تعلم أنها تكتب كتمرين متواصل عن الحنين إلى بلدها في كل تلك الكتب التي أبدعتها.

لقد تسبب سؤال حفيدها وسؤال ذلك المجهول في الندوة بكتابة هذا الكتاب «بلدي المخترع» الذي كان عبارة عن رحلة في الذاكرة استغرقت إيزابيل طويلًا، فقد مرت بطفولتها سريعًا دون اهتمام كبير سوى ببعض التفاصيل كتلك الكلبة التي كانت تحبها في المنزل مثلًا، لكنها توقفت بشكل عنيف أمام الأحداث التي جعلتها تترك تشيلي لتهاجر وتستقر في كاليفورنيا بالولايات المتحدة، أما الأمر الأكثر دراماتيكية وما اعترفت به الليندي لأول مرة فهو ذلك الشعور بعدم الانتماء الذي ظلت تعاني منه طيلة حياتها حتى اليوم، فهي لم تنسجم مع أي مكان، لا مع الأسرة ولا مع الطبقة الاجتماعية ولا مع الدين، لم تنتسب للعصابة الصغيرة التي كانت تمضي في الشارع على الدراجات طيلة اليوم، أبناء عمومتها لم يدرجوها في ألعابهم، فكانت أقل الصغيرات شعبية في المدرسة وأقلهن رقصًا في الحفلات لا لقبحها كما تقول ولكن لخجلها كما تفضل أن تعتقد، وقد ظل جذر المشكلة هو ذاته دائمًا عدم القدرة على قبول ما يعتبره الآخرون طبيعيًّا، والتبرع بإعطاء آراء لا يريد أحد أن يسمعها أو يوافق عليها كانت مشكلة إيزابيل الأبدية. هي تعترف بذلك دون أن تجد فيه أية كارثة فقد كفاها إبداعها ونجاحها عن أشياء كثيرة جدًّا يوفرها الانتماء للمجموعة، كثيرون مثل الليندي، لكن قلة من هؤلاء يغادرون أرض الشكوى إلى أفق الإبداع كما فعلت هي.

لا نمل التسكع في هذه الأمكنة، أسميها روح المدينة الحقيقية، بغض النظر عن حقيقتها التجارية، فالمتسوق يبحث عما ينعش روحه ويربطه بالمكان، ويعيد إليه بشكل نوستالجي أمكنة يعرفها وتسكن ذاكرته!

فهرس الكتاب

كلمة لا بد منها..... 7

في السفر..... 9

دبي.. أبجدية البحر والحياة 17

حديث أمي ومدينتي 21

فريج عيال ناصر 25

مدرسة البنات.. الأولى..... 27

على ضفة خور دبي 29

أغنية للبحر 31

سيف الذي لا يعرف مدينته! 33

ومريم التي تغتسل بالمطر والحكايات 37

نسافر.. لنقترب أكثر! 39

الحياة مع عجوز إنجليزية 41

تحت سماوات أخرى

(1) تحت سماء القاهرة 47

• القاهرة بعد فراق 49

• القاهرة.. التاريخ الحاضر أبدًا 51

• حكاية من الإسكندرية 54

(2) لبنان.. كما لم أعرفه 57

• بيروت 1937 59

• مدينة زحلة.. جارة الوادي 60

(3) الكويت.. التي تملأ ذاكرتي 63

• سوق المباركية.. روح المكان 65

(4) تحت شمس براغ 67

• إذا كنت في براغ.. فلا تفعل مثل أهلها 69

• على جسر تشارلز 70

(5) ياشيموف.. حيث «التقيت» مدام كوري 73

(6) إسطنبول.. مدينة التاريخ والحياة 77

• إسطنبول.. التاريخ الملغوم 79

• هذا الشارع أعرفه جيدًا 81

(7) بانكوك.. مدينة شرقية صاخبة 83

• أرصفة الفقراء والحياة 86

• أسئلة سائح 88

(8) فلورنسا.. مدينة النهضة 91

(9) ميونخ.. أوراق رحلة قديمة! 95

• ميونخ التي أعرفها جيدًا..... 98

(10) بادن بادن.. مدينة الحمامات 101

• جاري الوحيد في المدينة 104

(11) بروكسل.. مدينة من ورد 107

(12) فينيسيا.. المدينة الخارجة من الماء 109

(13) فيرونا.. مدينة جولييت 113

•حين كدت أتجمد في القطار 115

(14) فيينا.. ليالي الأنس 117

(15) دبروفنيك .. مدينة الأسوار 121

(16) برشلونة .. مدينة الروايات الملتبسة 123

مفكرة مسافر

أشياء لا بد منها قبل الرحيل 127

المدن لا تجامل عشاقها 129

المدن.. ناس وساحات 131

المدن.. التي تعلمنا الحكمة 135

المدن لا تعترف بمزاجك 137

نعم... يغيرنا السفر 139

نعم.. يغيرنا مناخ المدن..... 141

ذاكرة المدينة والريف 143

القهوة.. تاريخ عائلي! 147

ليس مجرد فنجان قهوة..... 151

وحيدًا على رأس جبل..... 153

الحنين لبلاد الأسلاف 155